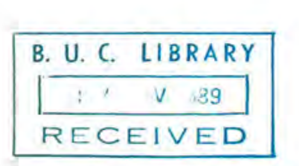
فوزي كريم

مراعي الصَبّار





مراعي الصَبّار



المؤلف: فوزي كريم
عنوان الكتاب: مراعي الصبار - Pastures of Cactus
لوحة الغلاف والتخطيطات في الداخل بقلم المؤلف
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٥



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

فوزي كريم

مراعي الصَبَّار



إلى عبد الستار ناصر

الصديق الذي رحل

هذه النصوص مُنتزعة من يومياتي، ولكن تحت تصرف سحر الخيال. استجابة لذاكرتي ومخيلتي معاً. آخذ صورة الفوتوغراف، وأتصرف بالرسم على سطحها حراً مع فرشاة الألوان. حدث أن حاولت ذلك في كتاب «مدينة النحاس» (دار المدى ١٩٩٥)، ولعلي حاولته في مقالاتي بين الحين والآخر. وسأظل أحاوله في مقعد الاستراحة الذي يتوسط دربيْ الشعر والدراسة، إذْ كلا هذين لا يمنحاني لذاذة النثر الحكائي. في الشعر تتصرف بي اللغة على هواها، وعلى هواي أتصرف باللغة في غير الشعر. أثق بلغة الشعر لأنها غير هادفة لمقاصد مبيّتة. لغة النثر العاقل خادعة لأنها توهمك بمقاصدها باتجاه الواقع أو الحقيقة. ومن يجرؤ على الاعلان عن معرفته بكليهما، وبأي مظهر مرئي يمكن أن يتجسد لهما خارج قحفة الرأس؟ فكيف لي أن أصدق بأن مدينة المنفى الذي أعيشه حقيقة أم محض حلم؟ ولكن نثر الحكاية طيّع، تستطيع فيه أن تقفز من مقعدك، وأنت منكبٌّ على صفحة الكتابة وقد استعصت عليك الكلمات، وتدخل بيسر في المرآة، وتختفي. هيرمن هيسه فعلها في واحدة من قصصه.

لا يخلو عالم الواقع من امتداد له لا يتضح للبصر، بل للبصيرة وحدها. ولا يخلو العالم الخفي والمجهول الذي يُحيط بنا من آثار خطوات يتركها على تربة الواقع. والشعر والحكاية احتفاء بنقاط التماس بين هذين العالمين. لم أتخلَّ عن احتفائي هذا حتى في حياتي

الخاصة. وحدها المرآة التي تُخيّب ظني. صحيح أنها تعكس صورتي، فتجعل من أذني اليسرى أذناً يمنى، ولكنها لا تفاجئني، وأنا أرتقي السلم ليلاً إلى غرفة النوم، بشكلي وقد مُسخ سعلاةً أو سحلية.

ليل الفئران

.١.

عِللُ القلب فينا، نحن المعرّضين أبداً لعبث الطبيعة وعبثِ الأقدار الفالتة من عقالها، عادة ما تبدو كامنةً غير ظاهرة، لا تمنع القلب عن ضخ دمائه للجسد بصورة ميكانيكية ولسنوات تجعل الإنسان، بالضرورة، في غفلة عن تربصها الكامن. صرتُ أقارب بينها وبين الموت الكامن في الحياة. كلاهما تبدو أعراضه تقتصرُ على توفير حكمة للإنسان، تلقيها عليه في وقت غير مناسب عادةً، ولذلك لا يملك أن يصغي إليها إلا فيما ندر.

حين فاجأتني الجلطةُ القلبية قبل قرابة ثلاثين عاماً، لم أكن أصدّقُ ما حدث إلى أن تُركتُ وحيداً في غرفة الإنعاش. هناك بدت الصورةُ الخفية وراء الظاهر بديهةً. داخل موجة باردة من المشاعر أتيح لي فيها أن أتعامل مع كل الشبكة المعقدة لعالم ما وراء الظاهر بروية ووضوح. كنت أقرأها فيما قبل على صفحات كتاب، أو أتصفحها مختالاً على صفحات مخيلتي. ولكني الآن فيما يبدو أدوّنها مباشرةً من التجربة الحية التي أحسها تُملي علي بروية وهدوء. استعدت الموت مجسداً في الأحياء ممن أعرف. لم يكن الأمر عصياً عليّ. الشاعر يملك مخيلة، ولكن عليه أن



لا يُفرد لها القياد. ألم أكتب يوماً بأن المخيلةَ جحيمُنا؟ عليه أن يستعيد الموت مُجسداً في الأحياء. الأحياء يبدون في مرآة الحياة كما هم عليه في الظاهر. ما تحتاجه هو أن تغيرَ قليلاً من استواء سطح المرآة، قليلاً جداً، لترى أيَّ شبح خفي يطل عليك من الشكل السوي.

امتلاك تجربة كهذه قد يمنحك قدرةَ دائمة على رؤية الحياة على سطح مرآة غير مستوية تماما. يمنحك قدرة دائمة، دون أن تكون بالضرورة كياناً غير متوازن، أو مهبول. الذي ساعدني على هذا، ربما كان عزلتي النسبية التي لا يد لي عليها.

موجات العراقيين باتجاه المنافي لم تبدأ بعد. كانت لندن خالية منهم. وغرفة النقاهة التي بقيتُ فيها أياما، لم يدخلها غير صديق واحد. لا أعرف ما الذي حل به بعد كل هذه السنوات. صديق دخل مع علبة قال إن فيها شورة عدس ساخنة. إنها تقوي عضلات القلب. وضحك على ما أذكر.

ولكن دخلها أيضاً، وقد تذكرتُ الآن بوضوح، شخص آخر لم أعرف الآن مقدارَ واقعيته. شخصٌ نصف عار، في هيئة شاب باكستاني. سجلتُ الحدث بتفاصيله في ما بعد، في قصة «الباكستاني» التي نشرتها في كتاب «مدينة النحاس».

كان الحدث جسيما لا شك في ذلك. ولكن جسامته تلاشت الآن. صارت أشبه بحدث أسود عارض في حلم. رجعتُ بعده إلى حياتي التي تضاهي حياة شاعر بوهيمي. توقفت عن التدخين، ولكني لم أتوقف عن الكحول، التي أجد فيها لذاذة استثنائية. على أن هذه اللذاذة استحواذية، فهي لا تترك للمفتون بها إلا لذاذتها هي، وتُلاشي كل لذاذة سواها.

كنتُ أقيم في شقة أرضية تتألف من غرفة نوم واحدة وغرفة ضيوف، تكاد تكون خالية من مظاهر السكنى الطبيعية، باستثناء جهاز موسيقي كبير، مع مكبريْ صوت أكبر حجماً منه، إلى جانبيه. الموسيقى صباحا. أسطوانات تزداد كل يوم تقريبا. و ساعات المساء عادة ما أقضيها في بار محلي. كانت لندن آنذاك رخيصة لحد أن باوند استرليني واحد كان يكفي لاحتساء ثلاثة أقداح بيرة كبيرة، كفيلة بأن تُرجعني إلى البيت مُفعماً بمشاعرِ ساحرٍ وفّر عالمه الذي يحلم به بغمضة عين. عند العودة تعود الموسيقى، ولكن في بحران جو مخمور شبه سحري. كنت أضفي على كل عمل أسمعه لمسةً من عالمي الداخلي. وهي لمسة لم تكن غريبة عليه كل الغرابة. هناك ثمة صلة وصل.

أحيانا أفضل تناول الكأس في البيت. أصنع وجبة مختارة من العَشاء. أهيئ أعمالا موسيقية ملائمة: شوبرت بصورة أساسية آنذاك. هل في هذا أي شعور خفي بالعطف على النفس؟ الخماسية الوترية ارتبطت في رأسي بسرير توماس مان، الذي توفي عليه. كان يفضل أن يواصل الإصغاء إليها في ساعاته الأخيرة. حين يشتد علي السكر،

ألجأ إلى «أحزان القديس ماثيو» لباخ. هناك أرتقي الجلجلة مع المسيح. لا أعرف بيقين لماذا. حزن المسيح ليس حزناً مسيحياً. وباخ، الذي لم أكن أستوعبه كما أزعم اليوم، يشبه أبله العائلة. لأنه أبله عائلة الأديان السماوية. أصغي له وأتوهمه يحاورني، أُصغي وأتوهم أني أفهم، ثم أتنهد نشوة، أو أجهش في البكاء. في لحظة الإجهاش بالبكاء وحدها أتوهم أن أمي تحتضنني. عباءتها السوداء التي تمس بشرتي الساخنة باردة، وتذكرني بلمسات شجيرات الغَرَب التي تنمو على جرف الماء.

أقطع نوم الليلة بثوان، وأستيقظ صباحاً مع دوار حاد.

يوما، طرق الباب أحد المعارف، الذي فاجأني وجوده أي مفاجأة. «صلاح! عجيب! هل هبطتَ من بلكونة الطابق الأول؟»

«دعني أدخل الحقيبة أولا، بعدها أُحتملُ عبثك.»

كانت حقيبته تشبه شخصيته تمام الشبه. جلد مدبوغ من الطراز القديم، فيه مغالق معدنية، وعروة منتصبة في الوسط، أركانها مهترئة، ولونها حائل. حمل الحقيبة أمامي إلى غرفة الجلوس. كنت أتأمل بدلته التي خرجت من مصنع عراقي متواضع الحال، حائلة اللون، تكاد حواشيها تكشف عن خيوط اهتراء، ومربعاتها تشبه قماشة مقاعد رخيصة. وحذاؤه لا يقل تواضعاً وكأنه قطع في الترحال بلداناً وقارات. رمى الحقيبة على عجل، واستقر على مقعد قرب الباب كمن قطع بادية دون نوم.

«هل تتخيل! صرتُ شخصاً مُطاردا، لا في العراق كما كنتُ طبعاً، بل على مستوى العالم.» قال ذلك، وهو مغلق العينين. وعلى فمه ابتسامة تكاد تكون فخورة. «العراق. سوريا. لبنان. الصين. والآن لندن.» كان أنفه، مثل أركان الحقيبة، مهترئ الجلد بفعل التمخط الدائم. حساسية مزمنة. مع بضعة أمراض كانت وليدة حساسية نفسية أبعد أثراً من حساسية الأنف.

كان من أبناء محلتي أيام زمان. يكبرني في السن كثيراً، ويجمعه مع أخوتي الكبار جيلٌ واحد، ولكنه يختلف عنهم في الطبيعة والتوجه. كان مثقفاً مهموماً باجتراح حلول جذرية لأزمة الفقر وإنصاف الانسان، ولا تعرف حياته العبث شأن بقية أبناء جيله. ولكن ثقافته تلك كانت فكرية إسلامية، معبأة بالعقيدة، وبضرورة التحام الفكر بالعمل. الأمر الذي ألجأه إلى الانتساب لحزب إسلامي ناشط آنذاك. طبيعته النفسية، والفيزيائية سريعة ردود الأفعال. وردود أفعاله كانت وما زالت مباشرة، ولا تحتمل مسافة بينها وبين العلل التي تثيرها. إلى الحد الذي كان إذا ما مُسّ من قبل أي شخص يشتبه بصحة إيمانه الديني، سرعان ما يلجأ إلى أي ماء قريب ليتطهر. نقطة ضعف استثمرها أقرانه بطرق بالغة السوء. أضف إلى هذا أن ثقافته عالية، ومتعالية بالضرورة على أبناء جيله في محلتنا الصغيرة. ولقد أفسدت تلك الطبيعة وتلك الثقافة علاقته معهم بصورة لا سبيل فيها للإصلاح، جعلتاه الطرف الأضعف في معادلة التنافس داخل درابين المحلة. كان موضع تندّر وتحرُّش ومناكدة. ولكنه ظل الأصلب بفعل إيمان لا يتزعزع بالكتاب الذي يقرأه، والفكر الذي يؤمن به. على أنه مع السنوات من تحاشيهم اتسع أفقه الجغرافي، وصارت علاقاته كملتزم، وككاتب تتجاوز «العباسية» وكرادة مريم وبغداد.

في مرحلة مطلع السبعينيات، صرت أكتب وأنشر بكثرة أنا الآخر، وبدأت علاقاتي الثقافية تتسع، ولم يكن صلاح بعيداً. ولكنه كان آنذاك قد انقلب على فكره الذي يؤمن به واتخذ وجهةً في الايمان مختلفة تماماً. الفكر الديني المتطرف أصبح الآن فكراً ماركسياً متطرفاً. الفكرة اختلفت ولكن طبيعة الايمان اليقيني ظلت كما هي. فقد كنت ألتقيه دائماً في بيته، أو مكتبه المتواضع في واحدة من دوائر الحكومة. ولكن تلك الصحبة لم تدم طويلاً، بسبب سفري وسفره هو الآخر.

«أعطاني رياض عنوانك.» قال بنبرة تكشف عن غير رضاً، «ألجأ إليك على مضض. يجب أن تعرف ذلك. فأنا لن أطيق صحبة شاعر عابث.» كان يتحدث متقطع الأنفاس، كمن يتحدث وهو يهرول. ظل يعاني من عطب في الرئة منذ سنوات المحلة القديمة حتى اليوم. لم أره إلا مبلول الأنف، وبصوت من أصابه رشح حاد.

«إن حياتي الخاصة لن تسمح بذلك. ولكنني سأقتسم معك سُكنى الفئران هذه إلى حين. كل الذي أطلبه منك ألا تخبر أحدا بوجودي معك هنا. هل بالإمكان أن تعمل شاياً. رطوبة حادة بالشقة كما يبدو.»

كان يتحدث باحتقار، ولكنه احتقار أخ يكبرني سناً. لم يكن الأمر يزعجني مطلقا. كنت أصغي، وأنا أبتسم بتشفٍ. فها هو المثقف المسؤول، يضطره موقفه الخلقي إلى اللوذ بعابث غير مسؤول.

كنت أشعر بغبطة بالتأكيد. فسأنعم في الأيام القليلة القادمة بصحبة لن يعكر أحد فيها الخلاف الممتع بيننا. كان صلاح على درجة عالية من المعرفة التاريخية، والفلسفية الإسلاميتين. ولكنه ظل، على صعيد الحياة والواقع، على درجة عالية من السذاجة وانعدام الخبرة. وقد يبدو الأمر وكأنه ينطوي على مفارقة. ولكنه ليس كذلك كما سأحاول إيضاحه فيما بعد.

أذكر أنني كنت دائم الخلاف معه في الشأن الايديولوجي والسياسي. كان ماركسياً، على يسار الشيوعيين. يحاول أن يوفق بين ولعه بالوجد الصوفي وقناعته بالفكر الماركسي. جعل الوجد أرضياً، يسعى إلى العدالة الاجتماعية. كنت أشعر بأنه يندفع بهذا الاتجاه بفعل الأسر المخدِّر للمعرفة، المنقطعة عن الحياة والخبرة. إنه يصدق أي وهم يركب عقله، من هذه الأوهام التي تنتهي إليها المعادلات الذهنية. فإذا قلت له أن بيتنا هذا مبنيّ بروث البقر مخلوط بالقار، ومطلي بالأصباغ،

فسيصدق ولكن بفعل انعدام مبالاة تامة بأمور لا تعنيه مطلقاً أولاً، وبفعل ارتيابه وكراهيته للغرب الرأسمالي جملة.

الجاكيت التي يرتديها تذكرني ببغداد، لأنني أظن أنها الجاكيت ذاتها التي كان يرتديها قبل أكثر من السنوات العشر التي باعدت بيننا. وربما كان السروال الأملح، القميص والكنزة الصوفية، لا تسهما في مظهره على كل حال. كان هذا المظهر متواضعاً، يليق بمفكر لا شأن له بأمور الدنيا. كان شديد الإعجاب بالنظام الصيني، لأنه لم يسمح للمواطن فيه بأكثر من قطعتين من كل ملبس في العام الواحد. بالرغم من استنكاره لعادة شرب الماء الساخن المتعمّدة كل لحظة. شديد الإعجاب بجيفارا، لأنه لم يره إلا ببدلة المقاتل. ولا يرضيه من أصدقائه والمعجبين به أحد. لأنهم جميعاً يلهيهم التأنق البرجوازي بصورة لا تليق بمثقف. ثمّ أن مثقفي العرب خونة بالجينات! يقول ذلك وكأنه يريد أن ينتفض عن مقعده.

بعد الشاي أخذت حقيبته إلى غرفة النوم الصغيرة نسبياً. هناك سرير نوم ملائم، ودولاب واسع، أفرغتُ له فيه ركناً صغيراً، ونافذة مضيئة تطل على الفسحة الخلفية التي أتعامل معها كحديقة، تكفي أحياناً كثيرة لجلسة ما بعد الظهيرة، أتأمل فيها، أو أقرأ. وحين عدت إليه بادرته بتفاصيل السكن: «غرفة النوم لك. تنفرد فيها مع مخططاتك السرية لتغيير العالم. أنا تكفيني غرفة الجلوس هذه وسنتقاسم أجرة السكن التي لن تشكل عبئا على كلينا.»

بدت علائم الارتياح على وجهه، وقد رأى الأمر بهذا اليسر. «الدفع هنا أسبوعي، على ما أعتقد. ولا تشغل نفسك بموضوع الطعام الذي لن أتقاسمه معك. لأني كما تعرف نباتي، وأنت كما أعرف، لحمي.» قالها بابتسامة ساخرة ولكن بمرارة.

ظل صلاح مقيما معي قرابة ثلاثة أشهر. يصرف ساعات النهار أحياناً في غرفته لا يبرحها. يجلس على حافة السرير، يضع حقيبة «سمسونايت» سوداء على ركبتيه. وفوقها يبسط أوراقاً، ويواصل الكتابة بصمت. معظم وجباته النباتية سندويتشات، يحلو له أن يلفها بالخبز العربي على الطريقة العراقية، وعلى الطريقة العراقية يرفع اللفة إلى اليمين قليلا ليستدير إليها برأسه فيقضم. لبنة. جبن. خضار. وأحياناً بقلي خلطة خضار مع بصل، وعجين. ويتجنب البيض فلديه حساسية منه. ولكنني كلما حاولت شواءً في الحديقة الخلفية، وانبعثت رائحته حادة، كلما خرج صلاح من غرفته إلى المشهد ساخراً بانفعال لا يملك إخفاءه: «ما الذي تُعِدُّ لخمرتك هذه المرة، يا آكل اللحم؟».

«كباب.» أقول له، وبصوت أحاول فيه ألا يبدو تحدياً. ولكنه لا يخفي رغبة بالاستعراض والاحتفاء. كنتُ أعرف مقدار تأثير رائحة الشواء المثيرة في كيان صلاح. أعرف مقدار ما يخفيه من رغبة مقموعة لتذوق هذه الأكلة الأثيرة لدى العراقيين: كفتة اللحم المشوية، المطعمة بالبقدونس والبصل والبهار. أعرف مقدار التعارض المرهق بين دعوة النزعة النباتية الطالعة من موقف ذهني، وبين النزعة الحسية التواقة للذة، التي تفي حقها أكلة الكباب، أو اللحوم المشوية بصورة عامة.

كان صلاح، كيساري متطرف، تركيبة شيزوفرينية. هذا محض اجتهاد أعتقد به، وللقارئ كامل الحرية في موافقتي عليه أو رفضه. لأن ما يخفيه صلاح دائم التعارض مع ما يعلنه. لأن ما يعلنه، ببساطة، وليد طبيعة ميالة إلى الاعتقاد بما يقرأه، وإلى تقديس ما يعتقد به. إنه بالغ الضعف في البنية واحتمال مظاهر الحياة القاسية، ولكنه بالغ الصلابة والقسوة في القرارات التي تمليها قناعته العقائدية. لا يحتمل رؤية دجاجة تُذبح، ولكنه جاهز دائما للتوقيع على مقتل آلاف ممن يراهم أعداءً في الموقف. نباتي تنبئ كل حواسه عن رغبته المقموعة في

اللذة، ولأقل اللحم بصراحة. يحب الأطفال، ما داموا كلمة مجردة. ولكن ما أن تتجسد الكلمة في طفل حي، عابث كأي طفل، حتى يضيق به ذرعاً. يفضل أن يملي مقالاته المثيرة المؤلبة القاسية على مقعد مأمون، في غرفة مجهولة، على أن يعرّض النفس لأي مواجهة جسدية. وكما هو زاهد في الملبس والمأكل، تراه ظاهر الزهد في الأمر المالي، فلا يتقبل مكافأة من الدولة الظالمة، ولكنه يترك لزوجته التي يعرف مقدار حرصها وحصافتها المالية التصرف بالدعم المالي للحزب الذي يأتيه، من أكثر من مصدر. وعلى رأس هذه التعارضات يقف احتقاره للنوازع الجنسية لدى الرجال والنساء، ولعل الدافع، كما يجتهد سوء ظني، لا يعدو عنّة لا أعرف كيف ومتى بدأت معه.

"اتفقنا إذن. أرجو لك منفىً موفقاً في هذه المدينة الرائعة." قلت له. وأنا ألقي بنفسي على المقعد الطويل الذي سأتخذه سريراً للنوم. أجاب: "أنت تجدها كذلك. و لم أشك في ذلك؟ مثقف يعيش على فضلات الفكر الغربي."

"ولكن، هل تراها على خلاف ذلك؟" قلت بدهشة ظاهرة الافتعال.

"أنا أراها مدينة تمتلئ أرصفتها وحدائقها بفضلات الكلاب."

"معرض فضلات الكلاب."

"بالضبط" قال، وقد دبّت في وجهه ابتسامة متوترة. كنت أحاذر من أن أجعل توتره يبلغ حد انقطاع الحوار. ولكنني، في نفس الوقت، لا أرغب بإطفاء متعة الخلاف مع هذا الغريزي الهارب إلى يوتوبيا لاآلام.

"تعرف، لقد قلتُ إنها معرض، وأنا أعني ذلك. صرت هذه الأيام أكثر ميلاً إلى الفوتوغراف، بسبب هذا المعرض الذي تسخر منه. أتكلم

بجدية. إن فضلات الكلاب، التي لا ينقطع تنوعها في الشكل أو اللون، صارت مصدر إثارة لعدسة الكاميرا. في هذا البلد تملك أن تجد مجالاً للخلق الفني حتى من فضلات الكلاب!" قلت هذه الخاتمة بجدية أردتها ظاهرة.

لم يستطع صلاح، طبعاً، أن يحتمل جديتي في هذا الحقل الخرائي. قفز من مكانه ضاحكاً ضحكة هستيرية مفتعلة، هي منفذه الوحيد للتعبير الحاد عن سخريته واحتقاره الشديدين.

"طبعا، طبعا، لتنعم أمك المسكينة بمصير ابنها الليبرالي." كان صوته عالياً بشكل لم أتوقعه، وأنفه شديد الخنة، كثير السيلان. أشرت إليه بأن يهدئ من روعه، خشية أن يتوهم الجيران أمراً.

كنتُ أعرف إن اندفاعة صلاح الغريزية باتجاه العقيدة مبكرة تماماً. كان أيام الشباب الأول عضواً في حزب التحرير الإسلامي. لا يحمل ورع وتقوى الإسلامي، بل حماسة وعنف الثوري الذي يريد أن يحدث تغييراً بأي ثمن. حكى لي ابن خاله، الذي يكاد يقربه عمراً، عن تلك الأيام، حين كان صلاح لا يمس مخلوقاً دون أن يسارع إلى الماء على الأثر ليغتسل من النجاسة، كما سبق أن ذكرت. كان فعله هذا مصدر استثارة وسخرية إلى حد ما من قبل الشبان الذين بعمره. و كان عميق الخلاف معه في الرأي والسلوك. كان ابن خاله، على رأيه، شاباً مولعاً بالحياة، كثير القراءة مثله، ولكن قراءته واهتماماته جملة على تماس مع خبرة الحياة. صلاح كان مولعاً بعالم اليوتوبيا. ولكن هذه اليوتوبيا للأسف تخلو من سحر الحلم. مشبعة بإلزامات السلوك المستحيل، وقوانين الحواس غير الممكنة.

"كنتُ دائم الخلاف معه داخل أزقة محلتنا الصغيرة" واصل ابن خاله حكايته، "وداخل بيوتنا العديدة، التي تكاد تشكل بيتاً متشعباً

واحداً. وسأضرب لك مثلا في حكاية حدثت بيننا تلك الأيام. كنتُ أنا شيطان محلة حقيقي. مولع بشيئين أشد الولع: المقالب أدبرها للناس، وملاحقة بنات المحلة. وكنت مع الاثنين واسع الحيلة كثير التوفيق. في أحد الأيام كنت دبرت موعداً مع صديقتين، وأقنعتهما أن يكونا سوية في لقاء سري، مريح ومأمون، يتم في الغرفة الأولى من بيت عمتي وهي الغرفة الأقرب إلى الباب الخارجي. كنت على يقين بأن البيت سيكون خالياً تماماً. عمتي ستذهب مع والدتي، وعدد من النسوان إلى زيارة مرقد "الكاظم". وصلاح، ابنها الوحيد، شديد التدين، سيذهب إلى منطقة الكاظمية هو الآخر لحضور اجتماع حزبي، سري طبعاً. كنت أعرف تفاصيل انتمائه واجتماعاته مستثمرا غفلته وقلة تدبيره.

"كنت زرت بيت عمتي أكثر من مرة قبل اللقاء الموعود ذلك اليوم. أطللت على الغرفة الأولى، جوار الباب الرئيسي. في الغرفة ركن لأدوات الطبخ. موقد نفطي، وعدد من قدور الطبخ، مرتبة فوق بعض، على طاولة خشبية قديمة، إلى جانب عدد متنوع من صحون الطعام والملاعق والسكاكين. ثم هناك في الركن الآخر دولاب خشبي صغير له بابان مستطيلان، تغطي صفحتهما شبكة بلاستيكية خضراء، ومن خلالها لك أن ترى بوضوح قناني الشاي، السكر، معجون الطماطم والطرشي وأشياء كثيرة أخرى. وهناك طاولة قديمة أخرى تراكم عليها أكثر من فراش مطوي، وأكثر من غطاء. رأيتها مكاناً أكثر من ملائم للقاء الملذات. بيوتنا عادة ما تكون مشرعة الأبواب، أو يسيرة على الفتح. وأبناء محلتنا أو ذوو القربى منهم، في أيام زيارة دينية كهذه، عادة ما يحرصون على إقفال أبواب البيوت الرئيسية بصورة لا تنم عن حرص أو خشية. وباب بيت عمتي أيسر عليّ من أن يشكل همّاً يشغلني في مناسبة شخصية كهذه.

هناك طارمة مفتوحة تفصل غرفة اللقاء عن غرفة ثانية، هي كل ما

تحتاجه عمتي وابنها الوحيد صلاح. فهي غرفة المسامرة في الشتاء، وغرفة انكباب صلاح على الدرس الذي لا ينتهي، وغرفة النوم لكليهما. نحن نتعامل، جميعاً، مع بيوتنا بالطريقة ذاتها، طلباً للدفء، مهما بلغ عدد أفراد العائلة.

تسربنا، أنا والفتاتان الصديقتان، كلاً على حدة، إلى الغرفة الأولى بيسر، وبصورة موفقة تماماً. هناك استطعت وبوقت وجيز إقناع الصغيرتين، بأن نتعرى، وإن تم الأمر على مراحل أخذت وقتاً لا سبيل إلى الاسراع فيه. وبدأنا متعتنا المشتركة دون أن يعكرها حذرٌ أو خوف من جانبهما.

بعد أقل من نصف ساعة، على أثر حركة غير متوازنة من إحدى الفتاتين، ارتطمت يد إحداهما بطرف قدر فسقط على الأرض. الضجة التي أحدثها بدت لنا، بفعل الحذر والصمت المحيط، زلزالاً. خمدت انفاسُنا للحظات، ثم تبينتُ بعدها شيئاً عجيباً حدث. كان صلاح في اليوم ذاته قد فكر مثلي في أن يستثمر غيابَ والدته الطويل مع معظم نساء المحلة، ليعقد اجتماعاً سرياً خاصاً بخليته الحزبية الصغيرة. ولكي يُبعد الشبهةَ ادّعى أمامي وأمام والدته بأنه سيضطر للغياب عن البيت طوال النهار، ولن يعود إلا بعد عودتها ليلاً، وليس لها أن تنشغل بموضوع غدائه وعشائه. ويبدو أنه فعل مثل الذي فعلت. سبقني بفترة وجيزة، ربما، وانتخب الغرفة المعدة لجلوس أكثر من واحد، من أجل اجتماعه السري. كان معه، كما تبينت فيما بعد، ثلاثة شبان، وما أن غمرتهم حمى الخلاف، على ما بدا لي، حتى هاجمتهم تلك الضجة المريعة للقدر المتدحرج وقد خرجت من قلب الصمت.

خرج صلاح بمنتهى الحذر، بعد أن بصبص من الشباك المعتم المطل على الطارمة المضاءة بضوء النهار. ما من أحد في الطارمة ولا في فسحة البيت المواجهة لها. بقيت غرفة المخزن الأولى. لعله قدر

دحرجته قطة متطفلة. ولكن كيف له أن يطمئن؟ واصل خطواته الحذرة، ونحن العراة، أنا والفتاتين، مازلنا في غمرة حالة هي خليط من خوف ونشوة بالمغامرة، ورغبة بالضحك. وفجأة فُتح باب غرفتنا عن فسحة من ضوء حاد للشمس تتقوس داخلها هيئة صلاح المرتابة التي بدت كالظل الكثيف. لا بد أن الضوء الحاد بدا له وكأنه يتدفق من قامتي الفتاتين العاريتين. كان العري الأنثوي السحري المتدفق كفيلاً بأن يطرح صلاح أرضاً، مغمياً عليه.»

قلت في نفسي حين سمعت الحكاية، إن العزيز صلاح، العديمَ الخبرة، إنما رأى الحياة على حقيقتها ففقد وعيه، تماماً كما رأى موسى نور الله على الجبل. ومضة خاطفة من الحياة، خرجت هذه المرة على شكل جسد أنثوي عارٍ تحت الشمس.

لم يكن في حقيبة صلاح حين جاء أكثر من كتب قد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وحزمة أوراق. كان يكتب كل يوم. وكما عرفت فيما بعد لم تكن كتاباته غير مقالات عاجلة لصحيفة أسبوعية كان قد أسسها هو لتكن الورقة الناطقة عن الحزب السياسي السري الذي أسسه أو أسهم في تأسيسه مؤخراً. كان هذا شرطه. موقع يشبه موقع المستشار والموجه الفكري والروحي. كنت أجهل خارطة التشكيلات الحزبية السياسية جملة داخل العراق وخارجه. كنت معارضاً، بدافع أخلاقي، للدكتاتورية. وأرى في معارضتي بديهة لا تستحق التبرير والايضاح. ولذلك لم أفهم كل تصرفات صلاح الحذرة معي، ولم أفهم هذه الزيارات التي تكاد تكون غامضة، يقوم بها أفراد، أو فرد واحد لصلاح فجأة. لم أسمع طرق أحدهم على الباب يوماً. كل الذي يحدث إنني أفاجأ بصلاح وهو يفتح باب البيت بهدوء، ويغادر. كنت شديد الحرص على معرفة زائره الغامض. وشديد الحرص، أيضاً، على

ألا أكشف عن فضولي هذا أمامه. وإلا فسأوسع من دائرة حذره مني، وأمد بها لمدى تصبح فيها ارتياباً.

استيقظت متأخرا ذات يوم، وعلى مقربة من الباب الرئيسي رأيت ورقةً كتب عليها صلاح: "أشكرك، رغم كل شيء. أنتقل إلى مكان سكني آخر. إجراء أفضل. أرجو أن تظل بخير."

.٢.

في هذه الشقة حدثت الأزمة القلبية الأولى. كنت حينها كثير التدخين، كثير احتساء الكحول. ثم توقفت، على الأثر، عن التدخين. ولكنني عدت إلى الكحول بالتدريج. عدت إليها لأنني كنت لا أحسن الانجليزية. وعدم توفر العمل، وقلة عدد العراقيين كان يشعرني بالوحدة، التي كنت أكافحها بالتجوال على دراجتي الهوائية بين المتاحف، معارض الرسم، السينما، وقاعات الموسيقى. ولكن مشاعر الوحدة كانت تصحبني حيث أذهب. تنمو وتتسع مع نمو واتساع خبرتي في الحياة والمعرفة. فأنا وحدي، وحين ألقي بصري إلى جادة سنوات مقبلة أمامي أجدني فيها وحدي، أغذ السير بحقيبة سفر مهترئة.

قدرتي على الكتابة الشعرية انحسرت لدرجة الصفر. مع أن إحساسي الفائض بما يعتمل في داخلي من شعر مجرد عن الكلمات، لم يُطفأ لحظة. لم تكن تعوزني القدرةُ على معرفة ذلك. اللغةُ التي تستقبل الفيضَ الداخلي هي وحدها التي تلاشت إلى حين، بسبب أكثر من عامل بارز في الحضور القاهر لمدينة لندن. ولذلك كنت حاضر الاستجابة لأولئك النقاد القلائل الذين كانوا يتحدثون بثقة عن اللغة القاصرة. عن القصيدة وراء القصيدة المرئية على الورق. كنت أفهم ذلك بقناعة المؤمن.

هذا الصمتُ المرتاب هو الذي أعطاني مزيداً من الاندفاع باتجاه

التجوال الحر بين الفنون، التي لا تحوجني صحبتها إلى لغة. كنت حين وصلت لندن قد اشتريت دراجةً هوائية متواضعة، تشبه تلك التي كانت لدي في بغداد. وعلى الدراجة كنت أقطع شوارع لندن، مستهدياً بالخارطة معي، وبالأهداف المحددة مسبقا، لتلك الأماكن الأثيرة لدي: دار الأوبرا، المتحف الوطني، الأكاديمية الملكية، شارع كورك المزدحم بالمعارض الفنية الصغيرة، الساوث بانك، الباربيكان...

في هذه المرحلة المبكرة، وبعد الأزمة القلبية بفترة قصيرة، تعرفت على فتاة نصف عراقية تصغرني سناً لم أكن أفضّل أن أطرح معها أي مشروع للمستقبل. لا لأني حذر من الارتباط الذي لا أعرف عاقبته، أو أن لي موقفاً واضحاً من المؤسسة الزوجية. بل لأني، ببساطة، لا أشعر بأني مؤهل حتى للبت بأمر في غاية الغموض كهذا الأمر.

صحبة المرأة، لمستها، الرغبة فيها تشعرني بأني على وشك العودة إلى حظيرة المجتمع الإنساني. بأني أعود واحداً من الجماعة، من الرجال الذين يكبرون على هدى هذا الخط البياني الذي يشترك فيه الجميع: الرجل في النهاية للمرأة، والمرأة للرجل، من أجل أن تتشكل خلية العائلة الصغيرة. أصدقائي جميعاً كانوا كذلك. كذلك كان كل من أعرف. صديقي أدهم كان كذلك. الشاب الذي يعمل في إدارة العمارة الموزعة إلى غرف منفردة للإيجار في إيرلس كورت. كان الثري العراقي، صاحب العمارة، عظيم البخل، كثير الأريحية. سمح له أن يستخدم المكتب عند المدخل للعمل نهاراً، وكغرفة نوم ليلاً. في النهار لم يكن يخلو ساعة من الزبائن العرب المستأجرين. يفضلون المكتب لقضاء الوقت والثرثرة. ويفضلون أدهم على أي دليل حين تدفعهم الحاجة للسؤال.

كان أدهم في صحبة حديثة مع فتاة تونسية، غاية في الدماثة، والرقة، والجمال أيضاً. وبفعل زياراتي المتكررة للمكتب، في الليل

خاصة، يتحول إلى ركن بيتي دافئ ينعم برائحة الطعام والشراب. صارت «زاهية» واضحة الميل إليّ مع الأيام. ميل الصداقة البريء كما نسميه. كانت تفضل الجلوس على مقربة مني. متأهبة للضحك وكأنها تتوقع دعابة مني أو مقلبا ضاحكاً. وكنت كذلك، خاصة بعد إحساسي المتزايد بسعيها لذلك.

كانت مشاعر الحب لا تنفصل عن مشاعر الذنب لدي. فأدهم يتمتع بوجه ووسامة طفوليين. ساعات عمله تغطي يومه وليله، وليس لها مدى وراءهما يمنحه أملاً للمستقبل. خدمات مرهقة رخيصة الدخل، محتكرة من قبل رجل عقارات جشع، يعرف تماما بأن أدهم، الشاب العراقي الهارب من بلده، لا يملك فرصة بديلة عن هذا العمل المهين الذي يوفر له مصروفاً ومكان إقامة. وهل يطمع اللاجئ بأكثر من هذين؟ كثيرا ما كان أدهم يكرر هذا التساؤل عليّ وكأنه يتطلع إلى استجابة موافقة، تعزز لديه قناعته بالعمل الذي بين يديه. كنت لا أبخل عليه بذلك. ثم إني أشعر، حقاً، بأن اللاجئ مثله، أو مثلي، لا يطمع بأكثر منهما. كانت فرص العمل العربية لمن لا يحسن الانكليزية نادرة آنذاك. ولأني أحسن الكتابة بالعربية وأحسن العربية، كانت فرص العمل مصححاً في بعض المنشورات العربية، التي بدأت تتلمس طريقها في لندن، متوفرة، خاصة إذا توفر وسيط لذلك.

لم أكن أختلف كثيراً عن حال أدهم وعن زاهية التي كانت مناسبة له في الوسامة والعمر. لا بد كانت تميز الفروق بيننا. فأنا أكبر عمراً نسبياً، ولا أضمن حياة مستقرة بسبب هذا الشغف بالخمرة والعبث. وشكلي الذي لا يلفت نظر أحد، والمرأة خاصة، إنما يعول في علاقاته على قوة الشخصية، وعلى هوية الشاعر المغرية عادةً. ولعل زاهية وجدت في هذين عاملاً مؤثراً. كانت تقول لي، ما إن تجلس إلى جواري، «لماذا لا تتحدث؟»، وتغرق في الضحك بفعل غبطة داخلية. كانت تقول

ذلك، حتى لو كنت المتحدث الوحيد. مع الأيام صارت تفضل، وهي تجلس إلى جواري، أن تمد أصابعها لتمسك بأصابعي. صارت أصابعها أكثر من مألوفة لدي. كنت أعجب من ليونة وصغر هذا الرسول، وأنا أحتضنه بأصابعي الخمسة. وبالرغم من عينيها المتأملتين فيّ، وأصابعها المستسلمة لأصابعي، لم أكن أشعر بأن ثمة علاقة حب ملموسة بيننا. ما بيننا لم يكن محيراً، أو مثيراً للالتباس والقلق. على العكس، عادة ما كان أدهم يتصل بي إذا ما كانت هناك نية للذهاب إلى البار، أو إلى المرقص. هل كانت زاهية وراء ذلك؟ ربما، ولكن بإمكان أدهم أن يحتج ويعترض، وله حق مشروع في ذلك.

هذا نمط من الحب وليد الألفة العميقة. صرت أفكر فيه وأعرفه، وباتت لي معه جولات في سنواتي المتأخرة. الحب المتولد عن ألفة لا بين شخصين بكليتيهما، بل بين عنصرين متوافقين من عناصر الرجل والمرأة التي لا يحصيها عد. نعم، كانت زاهية تحب أدهم. ورغبتها متوافقة مع رغبته بالزواج. ما من شك في ذلك. ولكن هناك عنصراً من عناصر كيانها الإنساني بقي تائهاً، دون أن يجد كفاية من أدهم ليتوافق معه. هذا العنصر سيظل في الخفاء متطلعاً، إلى أن يعثر على مستقر في كيان آخر، سيجد فيه عنصراً متوافقا معه، فيميل إليه، ويشبع به. ولكن شرط أن يظل هذا الكيان الآخر ضائعاً، مشرداً، كرة من المطاط لا مُستقر لها.

لم يبد لي تفسيري هذا تبريراً لتحقيق مآرب. فأنا بدوري، لم أسع لتعميق علاقة العاطفة الخفية بيني وبين زاهية. كنت أذهب إلى المكتب بحكم العادة لأرى أدهم. ولكني، بالتأكيد، كنت أؤمل النفس بأن أجد زاهية. كان ذلك يمنحني غبطة ويمنحها أيضا. على أني ما كنت أشعر بخيبة إذا لم يتحقق ذلك. وكنت أُمنّي النفس بشيء يفيض على ما أنا عليه. هناك شيء من خدر الإحساس بحياة استثنائية، خُصصتُ بها، عميقة في أساها وكآبتها. يحلو لي أن أعزو ذلك إلى كوني شاعراً

لا تكتفي حواسه برؤية الظاهر. هذا الأمر كان يجعلني سريعَ العطب بشأن العلاقة مع كل ما هو زمني: علاقة مع آخر، مع عمل، مع مكان، مع عادة، مع أي أمل أو أية فكرة ترتبط بكل هذا. كنت سريع التخلي، أو على الأقل، أبدو لا مبالياً في لحظة القطيعة.

أكثر من مرة ذهبنا سوية إلى مراقص الديسكو الصاخبة. كنا نفضل واحداً في حي «هامر سميث»، واسعاً بصورة بدت لي خيالية. ساحة الرقص الواسعة تتوسط المكان، وقد تكون الفسحة المضاءة الوحيدة في المرقص، حيث تغرق الأركان المحيطة بها بعتمة، أو إضاءة ذات لون أعمق وأكثف من العتمة. صوت الموسيقى، الذي ينفرد فيه الإيقاع العنيف بصورة قاهرة، يكاد يخرج من كل مكان، حتى من جسد الراقصين ذاته. أمر كنت أتجرعه على مضض، مع جرعات البيرة الثقيلة. كانت الكحول غالية الثمن هنا، والعرق اليوناني الذي كنت أفضله، مستحيلا. هناك أكثر من ركن يمكن اختياره بين تلك الأركان المعتمة، بعيداً عن هذا الجهد بالغ الغباء الذي أراه في الشبان الراقصين. كأس البيرة الكبير على الطاولة المستديرة أمامي، وكرسيان لأدهم وزاهية عادة ما يكونا فارغين معظم الساعة الأولى من مطلع الحفل الراقص. لكنهما يؤخذان، ما أن نصل، بفورة النشاط والحماس في جسديهما. ثم يدب بهما التعب والملل من الحركة فيما بعد. وكنت ألحظ أن أدهم، بحكم تأثير الكحول، سرعان ما يبدأ تطلعه لضرب من النشاط آخر. كأن يشرك نفسه، وزاهية معه، وهما في حمى الرقص، برقصة جماعية مع آخرين إلى جوارهما في الساحة، أو يفلت بنفسه ليدخل دوامة فتاة راقصة منفردة على مقربة منه. وزاهية لا تبالي بكل ذلك. ضاحكة معظم الوقت، مشيرة بين حين وآخر إليّ من بعيد أن التحق بهما. ولكني أكتفي برفع كأسي لهما مبتسماً.

حين يدب بها التعب تُقبل على كرسيها وتلقي بنفسها عليه ثم تأخذ

بيدي وهي تضحك: «لماذا لا ترغب بالرقص، أيها العجوز؟». أكتفي بالنظر إليها مبتسماً، وكأني أتجنب أية استثارة من حديث، تبعد يدها المستسلمة ليدي.

كانت زاهية صغيرة البنية، ناعمة التفاصيل، في وجهها خمريّ البياض استكانةٌ ملائكيةٌ ترتسم على كل أجزائه. على الأنف المرتفع بحذر فوق شفتين ناضجتين، شفافتين. على العينين السوداوين واسعتيْ الأحداق، طويلتيْ الأهداب. على أن الشعر الكث الذي يؤطر الوجه والرقبة يبوح برغبة حسية لا سبيل إلى كتمانها. أذكر أني استجبت لتلك الرغبة أول مرة، بأن مددت يدي وتلمستُ بطرفي السبابة والإبهام خصلة شعر فالتة. وكأني أختبر مقدار صحبتها. الأمر الذي ترك زاهية، وهي تترقب، غارقة في الضحك.

بعد جولة من جولات الرقص المتأخرة، وكنت أترقب عودةَ زاهية المألوفة إلى كرسيها، فضلتُ أن أتخلى عن جلستي الطويلة وأقف متكئاً على عمود حديدي إلى جواري، من تلك الأعمدة المزخرفة العديدة التي يستند عليها بالكون الطابق العلوي. فعلتُ ذلك بهاجس مبيّت دون شك. وكأني أريد أن أختبر الطبيعة الغامضة لعودة زاهية إلى مقعدها. إلى مائدتنا، إليّ! كنت أريد أن أعرف إذا ما كانت ستلقي بنفسها منهكة على كرسيها كالعادة، ولا تبالي بمصير كفها الصغير الذي ألفته بين أصابع كفي.

ولكن زاهية لم تجلس بل ظلت واقفة إلى جواري تنظر إليّ بادية التعب. ثم كقطة أليفة اقتربت مني واحتضنت خاصرتي بذراعيها، وعلى صدري الأيسر أراحت رأسها وافر الشعر. كان حضورها بالغ الصمت. ترفع عينيها إلى عينيّ بين حين وآخر، لتتأمل صمتي العميق بدورها.

حين جاء أدهم ضحك بشيء من الارتباك. فالمشهد بدا له، على غرابته، طبيعياً، وتلقائياً، بصورة مؤثرة. فأنا الذي مازلت أمسك كأس البيرة في يدي اليمنى، وألقي بذراعي الأيسر على كتفها، أبدو أشبه بكيان محتضن بمواساة. يقوم بمهمة ملقاة عليه من قوى الحنو العليا الغامضة. خاطب زاهية بحنو هو الآخر: «هل أنت بخير؟» أومأت إليه بعينيها بإيجاب.

«أعتقد أنها بلغت من التعب حداً لم يعد معه الكرسي كافياً.» قلت ذلك بكامل العفوية، ولكن زاهية دفعت نفسها عني ضاحكة وهي تهمس: «صحيح، صحيح».

***

ظلت فرصة لقاء زاهية وأدهم تتم عادة في ساعة الاستراحة التي تفصل نهار الجولات عن ليل الخمرة. وهي تتم في مكان المكتب الضيق، وأحياناً تتسع في البارات المجاورة، أو المراقص. أما بيتي فظل مهجوراً إلا في رقدة الليل، حيث أعود في ساعة متأخرة مستسلماً لفراش النوم.

كنت مستسلما لهذه الحال، التي وجدتها أكثر من ملائمة لطبعي المزدوج. لعالمي المزدوج. لرؤاي المزدوجة. فأنا على الدوام سبّابة أرضية، على أهبة التماس مع طرف سبّابة غير أرضية. تاريخي يتحفّزُ للدخول فيما هو أسطوري. واقعي مع ما هو خيالي. الألم يُشبعني، لأنه ينطوي على مسرة خفية. الفقدان يتسامى إلى توق وتطلع. والتضحيةُ أشرفُ الثمار وأحلاها مذاقاً. ولذا بدت علاقتي الخفية بزاهية تضحية.

ما كانت تنتابني مشاعر ذنب على امتداد علاقتي بأدهم. فأنا حريص على علاقتهما ببعض حرصي على علاقتي بها. ومشاعر الغيرة غريبة عليّ هي الأخرى. ففي اللقاءات يسرني أن أجدهما محتضنين بعضاً.

وما انتابتني يوماً لحظة ألم أو غيض وأنا أتأملهما يغادران إلى واحدة من غرف الايجار الفاضية في العمارة السكنية. على العكس تماماً، كان المشهد يحدد لي طبيعة عاطفتي بزاهية بحد السكين. ويفردها عن كل عواطف الحب المألوفة. فأنا أريدها معي، ولا أريدها لي. كنت أحدق بالفرق كالأبله. أريدها معي حتى وهي تمارس الجنس مع أدهم. كانت هذه الفكرةُ مرهقةً أحيانا فأتحاشاها.

معظم الخواطر التي تجتاحني وأنا في بُحران استعادة زاهية تبدو لي مشوشة مضطربة على هذا الشكل. ولكنها متطابقة مع هواجسي وعواطفي.

في ظهيرة أحد ربيعي ممطر كنت عائداً من جولة في قلب لندن، رأيت فيها معرضاً استعادياً للتعبيري النرويجي «مونك» في الأكاديمية الملكية. المعرض يقتصر على لوحات البورتريت الشخصي، ويبدو فيه مونك محدقاً في نفسه، رغم تحديقه في عيني مشاهديه. تأملت ضربات فرشاته غير المبالية، غير الدقيقة، وكأنها تحمل مادة غير اللون، مادة خشنة تفرزها الروح اللائبة، المذعورة، الجافلة. أقرب للصوت المسموع منها للون المرئي. كنت أقترب من القماشة لأكون على يقين من رأيي هذا، راغباً في محاكاته، إذا ما عنّ لي أن أرسم هذه الأيام. في أحد اللوحات رأيته يحدق بي مذعوراً. يحدق بوجهه الذي يراه في وجهي. يحدق، ووراءه على مبعدة ظهرت ملامح رجل وامرأة محتضنين بعضاً، ويقبلان بعضاً. هو يكتفي بعين الرقيب. أخذتني رجفة وأنا أبتعد خطوات عن النظرات المحدقة الذاهلة. كنت أعرف «مونك» جيداً. على دراية بحياته العائلية المفجعة وبحياته الشخصية، عميقة العزلة. ولذا لم أستطع أن أرى في نظرته المذعورة أية ملامح غيرة، تلك التي يتحدث عنها النقاد. كنت على يقين من ذلك، وأنا أقترب ثانية من اللوحة لأتأمل عمق الذهول في عينيْ الفنان النرويجي.

في طريق العودة على دراجتي الهوائية، وأنا لم أغادر العينين الذاهلتين، كان رذاذُ المطر والنسائمُ التي تكاد تكون دافئة، يشعراني برضا فائق. كان رداء الوقاية المانع للماء يغطي كامل جسدي والدراجة الهوائية، ويترك رأسي بغطاء الرأس عرضة للرذاذ والهواء.

«هل تُرى ينطوي هذا الكيان الذي يحب الدراجة الهوائية ورذاذَ المطر على مشاعر غيرة؟» كان رأسي المعرض للماء الربيعي مشغولاً بدوامات أسئلة كهذه. «إذا كان كذلك فإنني معرض لحب لا فرادة فيه. حب أدهم، وكل الأحياء على شاكلته.» ثم ارتسم وجه زاهية الضاحك أمامي وأنا أسبح في تيار هواء عذب بين السيارات المتهادية والرصيف. «ما أجمل لندن الكبيرة، الرطبة، الرمادية الأفق، المضببة، المُسنّة.»

أقف كما تقف السيارات عند الإشارة الحمراء، ومع الإشارة الخضراء أندفع دون حماس. فرذاذ المطر يخفف علي وطأة الوقت والهدف. أعرف أنني متجه إلى العمارة السكنية حيث زاهية وأدهم، ولكن هذا الهدف لا ينتسب إلى الوقت. أنتهي من شارع الـ «بيكاديللي» لأرتبك أمام مفترق الطرقات في ركن الـ «هايد بارك». أفضل أن أنحدر راجلاً إلى نفق السابلة لأقطع شبكة المفترقات هذه، وأرتفع إلى شارع «نايتسْبرِج» المطل على الـ «هايدْبارك»، ثم سرعان ما أنحرف يساراً إلى شارع «برومْبتون» الذي يتواصل مع شارع «كرومْويل».

في ايرلس كورت تخليت عن شارع كرومويل لأدخل طريقاً ضيقة توصل إلى عمارة الغرف السكنية. وعند المدخل ربطت دراجتي في السور الحديدي، وتطلعت عبر شباك المكتب الأمامي لأرى أدهم منكباً على أوراق وصولات فوق الطاولة الخشبية. وشبح شخص لم أتعرف على ملامحه الغائمة، بفعل قطرات المطر التي غطت الزجاجة برمتها. ولكني لم ألمح زاهية. خلعت الرداء المطري وحشرته في حقيبة اليد الصغيرة، ثم صعدت درجات السلم الاسمنتية، ودخلت الباب

الرئيسي متعجلاً، وهناك توقفت متمهلاً وأنا أنفض ما استطعت بقايا قطرات البلل عن الرأس وعن الحذاء الثقيل بفعل الماء.

حين دخلت المكتب فوجئت بشخص المسرحي العريق جليل الشرقي على المقعد أمامي، وهو يحاول أن يقف على قدميه بمشقة لاستقبالي. كان أشيب الشعر، كثيفه. أحمر البشرة بفعل شمس بغداد. مع شيء من انحناءة في الظهر هي خليط من كبر السن، ومن طبيعة في هيئته، كنت أعرفها من أيام معرفتي به في بغداد.

«أهلا بعزيزي. ما أجمل أن ألتقيك هنا، بعيداً عن الهواء الفاسد..» كان جليل أريحياً، بارعاً في الدعابة، وعلى دراية عالية بشؤون المسرح في العاصمة منذ الخمسينيات. وبالرغم من حديثه الذي لا ينقطع عن عروض الفرق المسرحية، عن عناصر نجاحها وهفواتها، هو الذي يعرف كل ممثل ومخرج وكاتب، إلا أنه لم يجرب الكتابة النقدية في هذا الحقل، رغم إلحاح أصدقائه. كان عادة ما يقول، إذا طرح عليه هذا المقترح: «أعط الخبز لآكله، عزيزي، لا لخبازته.»

احتضنا بعضاً بحرارة، ثم أعدته إلى كرسيه، إذ بدا لي متعباً بعض الشيء:

«فرصة رائعة. متى شرفت؟»

«البارحة ليلا. نزلت من الطائرة وانحنيت ـ «أقبّلُ أعتابَ هذا المحل». حين سمعت بسفرك المفاجئ قلت «عفية وليدي. إخلص» كانت محاولتك للخلاص رائعة، وراندة، لم نستطعْها نحن البائسين.»

«أنا لا مال ولا ولد، أما أنت فمثقل بعائلة كبيرة.»

«خطيئة العمر. نعم، مثقل وكسير الظهر»

حاولت الجلوس إلى جانبه، ولكن دخول زاهية بصينية الشاي عطلني عن ذلك:

«سمعت صوتك فأعددت لك الشاي مع الآخرين». قالت ذلك ضاحكة، وكأنها تعني «توقعتك».

«هذا كرم منك، زاهية»

وضعت صينية الشاي على طاولة صغيرة في الوسط، وجلست على كرسي إلى جوار أدهم.

تحدثنا كثيراً أنا وجليل، وكان أدهم يقتحم حديثنا بين حين وآخر، ثم يعود إلى الانشغال بالأوراق التي بين يديه. أما زاهية فكانت مكتفية بالصمت. على أن وجهها يشرق بابتسامة تقارب الضحك ما أن يلتقي بوجهي.

بدأت نافذة المكتب الطويلة الواسعة تغيم قليلاً، فالساعة قاربت السادسة. وها صوت الرجل الهندي المعهود يتردد في الشارع، شأنه في قرابة الساعة السادسة من كل يوم. إن أحداً لا يعرف إذا ما كانت كلمة «قحبة» العربية التي تنطلق عالية من حنجرته شتيمة مقصودة. فهو يصرخ بها كل دقيقتين أو ثلاث بطريقة لا تخلو من حرقة، في هذا الحي الذي يكثر فيه الزوار العرب، مرضى وسائحين. كان أدهم، كلما انطلقت كلمة «قحبة» يلتفت إليّ ضاحكاً، وأنا أستجيب له ضاحكاً بدوري بطريقة بدت له ميكانيكية، في غمرة حديثي مع جليل، فكف عن ذلك.

مع المساء تم الاتفاق على أن نقيم عشاء في المكتب، ونأخذ كأساً احتفاء بزيارة جليل. ولقد وعدته من جانبي أن أكون معه طوال يوم غد، في جولة نافعة. إن جليل لا يحسن الانجليزية، مثلي، ولذا لا يصح ان نحضر عرضاً مسرحياً. الأفضل أن نتخم الجولة بحضور حفل موسيقي. الموسيقى لغة نحسنها جميعاً. كان جليل واضح الطرب لمشروع غد.

بدأنا بإعداد المازة المعهودة: صحن سلطة، صحن باقلاء من علبة معدنية فتحناها على عجل، ولبن رائب. ووعد أدهم بأن يعمل لنا اكلة يحسنها، من لحم معلب، بيض، بصل وطماطم. «رائع، ولتكن متأخرة.» صوّتنا أنا وجليل سوية بحرص واضح. وعدنا أدهم خيراً، وأخرج من تحت طاولته زجاجة عرق كبيرة. رفعها بيده عالياً: «هدية جاء بها جليل لي من بغداد، وأنا أصر أن نقتسمها الليلة سوية بالمناسبة.»

ليل الخمرة عادة ما يبدأ بلمسة حنو عائلية، متبادلة بين الأطراف المشتركة. تجد كلَّ واحد منا يحلو له أن يقتسم كل شيء بينه وبين نديمه، لا الكأس طبعاً. كان جليل المدخن الوحيد بيننا. أنا قاطعت الدخان منذ الأزمة القلبية، وأدهم وزاهية لا يدخنان. ولكن أحداً منا لا يمانع من مشاركة جليس مدخن، على مائدة سهرة دافئة كهذه.

«سأدخن بتقتير. أعدكم بذلك.» قال جليل. ثم التفت إليّ كمن يتذكر فجأة، مواصلا: «ولكن أتعرف مَن التقيت نهار اليوم، وأنا في طريقي إلى هنا؟ صلاح المعقد. العجيب أنه ما إن رآني من بعيد، حتى عبر إلى الرصيف الآخر مُتحاشياً إياي. أمر غريب، ما السبب وراء ذلك؟ هل تستطيع أن تخمن؟»

«الجيد أنه عرفك على البعد. هذا فضل منه.» ثم حكيت لهم كيف فاجأني في شقتي، وكيف شاركني السكن لفترة. ثم كيف انتقل إلى سكن مجهول آخر فجأة، وبصورة تسترِّية. كان جليل يعرف صلاح منذ سنوات الشباب الأولى في الجامعة. سنوات انتمائه السياسي الديني.

«كنتُ يسارياً حينذاك. وكان صلاح لا يجد ضيراً في الحوار معنا بشأن الحلول الممكنة لتشكيل قوى معارضة ضد السلطة، حتى لو كانت هذه المعارضة متعارضة في توجهاتها العقائدية. كنت أشعر أن الرجل، بمقدار ما ينطوي عليه شخصه من شذوذ في الطبع، ينطوي

على شيء من ميل لفكر اليسار الشيوعي. كان لا يمانع من إغفال النزعة الإلحادية، أو اللادينية، لدى المثقفين. ويجدها لا تعرقل امكانية الحوار، وحتى التوافق. كان يجدها «قناعا كاذبا لمحاكاة الغرب» على حد قوله. وهو قناع كاذب لا يستطيع أن يأخذه مأخذا جدياً.»

«التفاتة صائبة منه، على ما أعتقد.» قلت معلقاً.

«ربما، ولكني لم أكن كذلك بين هؤلاء المثقفين. فما زلت، والحمد لله، لا أنطوي على حرارة إيمان.» ضحك، وهو يحمل كأسه إلى فمه. ضحك معه أدهم وكأنه يوافق على غلوائه بدافع كرم الضيافة، لا بدافع القناعة. فليس هناك من سبب يمنع المرء من الايمان، حتى لو كان شديد الشغف بالخمرة. «الخمرة مكروهة ولكن ليست محرمة.» قال في داخله، وتابع الحوار برضا.

كان أدهم بالغ الرقة، طويلاً، نحيل القوام ولكن برشاقة، ذا وجه طفولي بعينين زرقاوين وشعر ناعم، ميال إلى الشقرة. صفات أهلته بطواعية لدخول معهد الفنون، قسم المسرح. عمل في التلفزيون سنوات قليلة، سرعان ما قطعها بصورة مفاجئة وسافر إلى لندن. كان هو الآخر يسارياً، ولكنه أصبح كذلك بتأثير الوسط العائلي والثقافي، لا بتأثير طبع فيه، أسوة بطباع الشبان من جيله، الميالة إلى الفكر والفعل السياسيين. ولذلك انصرف إلى همومه المعاشية، وهموم مستقبله في لندن، متحاشياً الالتفات إلى الماضي، معتبراً كل مشاغل الشباب الماضية نزهات لا معنى لها، ووليدة فراغ. ولقد سمح له كل ذلك بشيء من الميل لايمان ديني، تقليدي، لا عنَت فيه أو تعصب.

وجدتُ رغبة في نفسي للتنويع على رأي جليل الديني بشأن نفسه. ولكني أرجأت ذلك إلى فرصة من الحديث قادمة. لابد أن زاهية قد تنبهت لذلك. كانت ثمة ظلال من توقعات في ملامحها، وهي تنظر

إليّ ساهمةَ الوجه، وكأنها في بُحران تأمل. شعرت أن قبضة مجهولة تمسك بقلبي، تعتصره، وتحوجني إلى تنهّد عميق يدفعني مسترخياً إلى شاطئ أمان. كانت الخمرة، من الكأس الأولى، قد أفرغتني من أعباء التجوال، وهيأتني كليةً لكي أكون جاهزاً لكل تأثير ممكن في حضرة هذه المرأة. «هل هو الحب؟ و لِمَ أصرف الوقت في تأمله ودراسته، لا في الاستسلام له! وإذا كنت أحب، فمن طرف واحد؟ أتبادلني العاطفة ذاتها؟». وفجأة، شعرت بأني أفتقر إلى أي دليل. فزاهية عميقة الصلة بأدهم. وهما يخططان، منذ بدء علاقتهما، للزواج. القبضة التي تعتصر قلبي سرعان ما أخذت لوناً آخر، دفعني إلى التوتر و لم يحوجني إلى تنهد. انتابتني مشاعرُ حرَج ثقيلة، ومشاعر ذنب.

«هل من موسيقى في أدراجك؟». قلت مخاطبا أدهم، لا عن رغبة حقيقية لسماع الموسيقى. كنت أفضل مواصلة الحديث. ولكن تساؤلي إنما طرأ على لساني لسد فراغ، أو قطعِ شاغلٍ شغلني.

كان شباكُ المكتب يعرض لنا خليطاً من إضاءة صفراء لمصابيح الشارع، وأخرى أشبه بخفقات شموع تتردد من نوافذ المبنى المقابل، مع فجوات معتمة من شظايا الليل. جليل في شاغل عني بتأمل علبة السجائر. فتحها بأناة، وذهنه لابد سارح في مكان آخر. أخذ سيجارة بطرفي سبابته وإبهامه، وأدارها برشاقة متمرس. وقبل أن يرفعها إلى فمه، التفت إليّ متسائلا إذا ما كنت أصدرتُ كتاباً جديداً.

«لا» قلت له. «حاولتُ مع ناشر لبناني ولكنه تحجج بأن العراق سوقه الرئيسي لتسويق الكتاب. وقد أكون أحد الأسماء الممنوعة هناك. لم أستطع أن أحاوره بهذا الأمر. قد يكون محقاً.»

أشعل جليل سيجارته آخذاً نفساً عميقاً من الدخان. كنت آخذ نفساً عميقاً كهذا لسنوات عديدة. أتأمل مقدار نشوته بلسعة الدخان شعيرات الأسى داخل رئتيه.

«القدر أعمى، ودون عكاز. كان أدهم، وهو أصغر أصدقائي الشبان جذوة حلوة من الطموح في حقل المسرح. أسهمتْ الإذاعة في إخمادها. ثم ينتهي به المطاف إلى إدارة هذا المبنى السكني، في خدمة مبتز عراقي.» قال جليل. فأجبته على الفور، لأرفع من معنويات أدهم الذي كان يصغي:

«لك أن تعتبر أدهم محظوظاً. فقد وفّرت له الصدفةُ العمياء سكناً ومعاشاً، وحبيبةً كفيلة بتعويضه عن كل خساراته.» ضحك أدهم، وهو يستدير إلى زاهية الضاحكة، ليقبلها من وجنتها. ثم واصلتُ الحديث:

«أعجبتني عبارتك: (القدر أعمى، ودون عكاز.) مرة في غمرة حوار من حواراتنا التي لم تنقطع، أنا وصلاح، وردت على لساني كلمة القدر. فقال صلاح بأن القدر الأعمى ليس إلا هفوة تفلت من الضرورة التاريخية. وأذكر بأني علقت قائلاً أن الأمر لا يعدو تنويعاً على المصطلح. فما نسميه الآن الضرورة التاريخية، كنتَ تسميه أيام الشباب الأول الله. الحوار انتهى بيننا إلى مشادة كلامية كالعادة.»

«هذا ديدن المثقف. إن شاغلي متعة الحياة الدنيا. وعدم إيماني يظل في سُبات على الهامش. لا أكترث كثيراً لأسئلة كهذه. حتى عبارتي التي أعجبتك لم تخرج إلا من هاجس بلاغي.»

«ليكن. ولكن هذا لن يقلل من خطورة مسألة الإيمان. متعة الحياة الدنيا لن تخرج عن دائرة الإيمان. نحن جميعاً أسرى هذه الحقيقة المعقدة. حتى لتبدو حرية اختيار الإيمان واللاإيمان مضحكة»

كنت أشعر، وأنا أتحدث متاملا وجه جليل، بأني أغرق تدريجياً في أسى عميق. حديث بهذا القدر من الجدية عادة ما يشعرني بالعزلة، وبالقطيعة مع البشر. رفعتُ وجهي قليلا باتجاه وجه زاهية، فوجدتها بالجدية ذاتها. ابتسمتْ. ثم رفعتْ من حاجبيها وكأنها تتساءل حائثة

على أن أواصل. حركتها التي بدت لي دفينة بجذور حارة غير مرئية هدمتْ حاجزَ العزلة في داخلي، وجعلتني أواصل بتدفق:

«لي صديق تعرفت عليه مؤخراً في لندن، كان عادة ما يخاطبني بلقب (صديقي الملحد). يقول ذلك حتى في لحظة تعارف مع آخرين. يقول ذلك بنشوة من يقول: (صديقي المثقف)، بدون أية شائبة من سخرية. كان الأمر يربكني حد المضايقة. لأني كنت أخشى ردود الأفعال. بل لأني كنت على يقين من أني لست ملحداً، كما يتوهم. على أني لم أكن مؤمناً أيضاً. إن المدى بين الإلحاد والإيمان يتزاحم بما لا يحصى من مواقف الكائن. قد أعرف بأني لست ملحداً، ولست مؤمناً. ولكني بالتأكيد لا أعرف، ولن أعرف، في أية واحدة من هذه المواقف بينهما أقف. إن شاغل الإيمان يستدعي مني تساؤلاً مسبقاً حول معناه أو ماهيته، وحول حاجتي إليه. ألا يبدو الأمر محيراً؟»

قطعتُ حديثي بالتساؤل من أجل استراحة مؤقتة، ومن أجل أن أمنح جليل فرصة للإسهام، لا الإصغاء فقط. بدت لي زاهية، حين ألقيت عليها نظرة عجلى، أيقونةً على جدار كنيسة حجري. كنت على وشك أن أجرؤ فأرسل قبلةً في الهواء، ولكني ارتبت من مفعول الخمرة في عواطفي المتحفّزة للغليان. أجابَ جليل: «لا أراه محيراً بهذا القَدر. بالنسبة لي على الأقل. الأمر يعتمد على طبيعة كل فردٍ منا، لا على الموقف ذاته. إنني رجل على قدر من التوازن، من الهيمنة العقلانية، من سلامة العلاقة مع المحيط، مع النفس. هل أنتَ معي؟ هذا طبع خُصصتُ به. إنني لم أسأل زوجتي ما الذي ستطبخ اليوم. قد أسألها عن رغبتي في وجبة بعينها. ولكنني سرعان ما أغفل ذلك. حين اخترت المسرح منذ أيام الشباب الأولى اخترته لأنه يمنحني دور المتفرج. أجلس وأصغي لتعارض البشر. ولا يتطلب، من أجل فهمه هذه التعارضات، أن أكون متعارضاً أنا بدوري. هل أنت معي؟ هذا الطبع خُصصت به،

خُصت به الجينات التي تكونتْ منها. أو خصّنها بها العواملُ المحيطة التي أنشأتها وأنضجتها. لقد اخترت المسرح، بمعنى آخر، لأني كائن غير درامي، كائن يحب أن يتأمل دراما الآخرين ويتعلم. في المقابل، عزيزي، يتحرك الكائن الآخر داخل دوامته. الإنسان الذي خُصت به جينات متعارضة مع ذاتها. الإنسان الذي كُتب عليه أن يكون على خشبة المسرح، الذي قُدِّر له أن يكون فرْجة، إنسان الدراما التي لا تنتهي إلا بموته، الإنسان الذي هو أنت وأدهم والأخت زاهية!»

هنا، انفجر جليل بضحكة مباغتة، عالية، كمن انتصر في لعبة طاولة أمام حشد من المتفرجين. لقد ملأه كأسا العرق بحيوية وغبطة ربيعيين.

كان أدهم مُوزَّعاً بين الإصغاء ومشاغل المكتب على ما يبدو: وصولات، دفتر النزلاء، تلفونات، أو مشاغل كتابة ما على أوراق صفراء صغيرة. ووجه زاهية ظل أكثر من مشجع على استمرار الحوار الذي بدا لها جديداً تماماً. فتحتْ فمها قائلة:

«لم ينته بعد حواركما في موضوع الايمان والإلحاد.»

«هذا صحيح.» قال جليل موافقا. أما أنا فبقيتُ ساكنا عند شفتيْ زاهية الموردتين. أحستْ هي بذلك، فابتسمت.

«الايمان حصة الإنسان المتوازن.» واصل جليل، «أما الالحاد فحصة الإنسان الملتبس، الدرامي. لقد كتب عليهما ذلك.» قلت مقاطعاً: «أفضل كلمة اللا إيمان. فهي أكثر دقة، فيما قلت أنا على أقل تقدير.»

«اللاايمان.» قال جليل موافقا «معك حق، هناك فرق دون شك.»

«اللامؤمن إنسان حيرة. الملحد كالمؤمن إنسان قناعة واستقرار.»

«اللاايمان يليق بشاعر. بالمناسبة هل كتبتَ شيئا في إقامتك اللندنية؟»

«أبداً. ليس لكياني مستقَر، كمن اقتُلع من جذوره وألقي في ريح.

الأمر رائع، ولكني أحتاج إلى وقت من أجل أن تنبت لي أجنحة من جديد.»

«مازلت أذكر قصيدتك عن ذلك السكير المهجور.»

هنا وجدت زاهية فرصة للمشاركة، فقالت بصوت بدا لي هامساً:

«اقرأها. هل هذا ممكن؟»

«لمَ لا.»

وحدقتُ في المائدة محاولا استعادة النص في ذاكرتي، وحين أمسكتُ به بدأت أقرأ، وعيناي لا تفارقان عيني زاهية. كانت هناك مناجاة حب واضحة بيننا. هذا ما تخيلته، ولم أعوّل عليه عن إرادة داخلية عنيدة. وفاضت بي رغبةُ أن لا تنتهي القصيدة. كانت استجابة الجميع دافئة. وحين انتهيتُ عانقني جليل، وهو يردد بينه وبين نفسه: «إن بغداد لن نعود. دخل الزورق المحيط العاصف.» وكنتُ أفهم ما يعني. في هذه المرحلة كان «السيد النائب» قد أصبح رئيساً للجمهورية، وبدأ ملحمة القتل برفاقه في القيادة.

مع الكأس الثالثة شعرتُ بحاجة لأن أنفرد بزاهية ولو لدقائق. وابتلعتني خاطرةُ أنَّ الأمر ممكن. وأن هذه الرغبة لابد عبرت في خاطرها هي الأخرى. التفتُّ إليها وكأني أريد في لحظات خاطفة أن أجعل الرغبتين تتواصلان. وشعرت أن التواصل حدث بصورة بدت لي أكثر من ملموسة. قفزت من مقعدي وأنا أتحدث معها:

«أحتاج إلى قليل من هواء منعش. سأقف إلى جوار نافذة غرفة المطبخ دقيقتين وأعود.» وخرجت. في المطبخ الصغير الذي ينحشر بين السلم وبين غرفة المخزن في هذا الطابق الأرضي، عرّضتُ وجهي للهواء الذي كان في حقيقته ساكناً، وأعطيت ظهري للباب، وصرت أترقب. تحول ظهري إلى مجسة بالغة الرهافة، تنقلُ إلى كياني كله آيَةَ

نأمة متوقعة، أيّ تماس قدم صغيرة، كقدم قطة بيت، بالأرض الخشبية المستهلكة. وبعد أقل من دقيقة واحدة شعرتُ بخطى، أمر ما يشبه الخطى ورائي، فلم أستدر. بقيت أتفحص طبيعة الصوت الذي بلغني، إذا ما كان وهماً. إذا ما كان رائحة عطر تحولت، عند قطع المسافة إلي، إلى وقع خطوة عزيزة. وفجأة سمعت صوتها كالهمس:

«هل من هواء؟ ما من فسحة وراء العمارة تسمح بحركة هواء.»

التفت إليها فوجدتها واقفة تبتسم. شعر كستنائي تستريح نهاياته الثقيلة على الكتفين. وجه، كل شيء فيه رُسم بيد رسام ماهر.

«الهواء ساكن أعرف. ولكني أتحرك.»

ضحكتْ، و لم تقل شيئاً، فواصلتُ الكلام:

«كم أشعر بالحنين إلى صالة ديسكو.»

«ديسكو! ولكني لم أرك ترقص يوماً، وتشكو عادة من الموسيقى الصاخبة.»

«أحن إليه لسبب آخر غير الرقص. أحن إلى وقفة الأبله في انتظار مجيئك. المرأة المتعبة من السفر تستريح بين يدين حانيتين.»

الكلماتُ الأخيرة دفعت زاهية باتجاهي. التصقت بي. يدها اليمنى استراحت حول خصري، واليسرى استقرت على الصدر كحمامة، وفوقها استقر الرأس كستنائي الشعر. بعد دقائق محسوبة سحبت جسدها بهدوء لتقول لي بأن وقت ذهابها لسكنها قد حان، سيوصلها أدهم كالعادة. استدارت عائدة إلى غرفة المكتب، وعلى أثرها عدت أنا الآخر، وقد ارتويتُ تماماً. على أن لوحة «مونك» ارتطمت على الأرض أمامي فجأة، وبضجة خرساء.

***

لم تكن غرفة المكتب معتمة تماماً. الشباك مغلق الأبواب يسمح لضياء مصباح الشارع أن ينحدر إلينا كفجر فضي. يمسح كل سطح ظاهر للموجودات بلمسة الفضة الباردة. أما الذي يتخفى وراء السطح فيغرق في عتمة مكتومة. وما من ظلال تتوسط العتمة والضوء.

كنت في كامل يقظتي، وأنا أضطجع على جانبي الأيمن فوق المقعد الطويل. رأسي فوق الوسادة البيضاء، وفي أصابع يدي اليمنى، التي تخرج من تحت خاصرتي، لا تستقر على حافة المقعد، مسبحة يُسُر سوداء، أحتفظ بها للحظات كهذه. كنت أتأمل دون دهشة الفئران الصغيرة التي بدت سوداء بفعل البياض المشع للشراشف، وهي تغطي الشرشفين الأبيضين فوق جسدي جليل وأدهم الممددَين أمامي، فوق فراشين متباعدين على الأرض. الشراشف التي كانت تشع كالفسفور جعلت الفئران التي تتحرك بقلق واضح فوقها بالغة الوضوح في الشكل والحجم. كأنها ظلال قاتمة دون تفاصيل، ترعى فوق هضاب جليدية ناصعة البياض. كنت أتأمل حركتها المتسارعة، المرتابة، وهي تختبرُ كلَّ منحدر، وكلَّ ثنيّة، كلَّ قمة بحاسة الشم وحدها، على ما يبدو. تُسرع وتتوقف جافلة، ثم تتراجع وكأنها تتحاشى أمراً. لم تقترب، إلا في النادر، من جهة الرأسين المستقرين بعمق فوق الوسادة. لقد أصبح صوت الشخير للجسدين الراقدين أكثر من مألوف لها. حتى الحركة الهادئة التي يولدها الشهيق والزفير في الصدرين لم تعد مصدر قلق.

أنا الآخر سرعان ما نسيت جسدَيْ صديقيّ الراقدين. غمرتني الهضاب الجليدية بسحر الخيال، وهي تتسع تحت تلك الأقدام الصغيرة، الخفيفة، التي تتحرك دون صوت. هضاب تتسع وتزداد تضاريساً. لقد تذكرت مشاهد كهذه في شاشات السينما، ولكنها لذئاب تعوي، وتملأ المشاهد بالروع. على العكس من هذه الكائنات التي بدت عزيزة وحميمة، تدب على سطح فوسفوري، فقط لتعلن عن حضورها الآسر.

كنت أقطّر حبات المسبحة بين أصابعي برتابة زمن أردته أن يكون راعياً لحركة هذا الكون السري الخبيء في غرفة مكتب مجهول، في لندن الكبرى ذات الضجيج الليلي الأخرس لعشرات الأجناس من البشر. كان وجهي منشرحاً ومبتسماً بالتأكيد. لم أشعر أني أطلب الكثير من الحياة هنا، في لندن. دراجة هوائية، وبضعة أوراق، وكأس من الخمر. وكنت على يقين بأنها لن تبخل علي في ذلك. لندن هي هذه المرتفعات السحرية البيضاء أمامي، التي يتناوب عليها فسفور الضوء وبرودة الثلج، ونحن هذه المخلوقات الصغيرة السوداء، التي لا تتضح تفاصيلها داخل حافات كتلتها الخيطية. نتحرك بحذر، لا نقرب أنفاس وشخير الحياة المجهولة. كنت أتأمل وأبتسم عن استراحة روح مسحها زيتُ الحب العطر، وغمستها الخمرةُ بحوض ماء دافئ.

تحرك جليل ليمتد على ظهره، وليطلق العنان لشخيره. بدا لي الصوت مقبولاً. انسحبتْ الفئران جميعا عن المشهد. وما إن استقر الجسد حتى عادت ثانية ترعى فوق الجليد. لا لغاية إلا لتعلن عن حضورها الآسر أمامي. صرت أكثر حرصاً على أن أنفرد بفارة واحدة. أتابع حركتها السريعة، المتقطعة. أتأمل صغر حجمها المدهش، ورشاقة حركتها، ومُقدّراً مقاومتَها لمخاوفها. أتأمل كل ذلك برضا، واستسلام، وكأني في غمرة تأمل لا يقل ميتافيزيقية عن تأمل النجوم، غمرة الظلام الكوني. استعدت حديثي مع جليل بشأن الايمان واللاإيمان، فوجدتهما وجهين لعملة واحدة. وجدتُ الفأرة تبتسم، وتتحدث. وجدتُ شاشة عرض أطلّ منها وجه ميكي ماوس. وكأني مع إطلالته استيقظت من حلم. شعرتُ بأسى وخيط كآبة يدخل في نسيج تأملي. كان فم جليل فاغراً. صوت منخريه يعلن عن احتباس أنفاس، واختناقات متقطعة. جسده المسجى، المغطى بالشرشف الأبيض، بدا لي كفناً تعبث فوقه

الفئران الجائعة، منتظرة بنفاد صبر اللحظة الحاسمة التي تستطيع بعدها أن تنقض لتلتهم لحم الإنسان البائس الزائل. انتقل بصري حيث أدهم، فلم يسعفني تغير المشهد. كان رأس أدهم غارقاً في عتمة بسبب المكتب القائم إلى جواره. وحده كان الشرشف بتضاريسه نهباً للفئران السوداء.

بقيتُ ساكناً، هادئاً كما كنت. وأصابع يدي اليمنى بقيت على عهدها مع حبات المسبحة، تُقطِّرُها على مهل. أما زمنها الرتيب فقد اضطرب أشد الاضطراب. لم يعد راعياً لحركة الكون السري الذي اختلقْتُـه داخل هذه الغرفة البائسة لمكتب رجل العقارات. لقد تعرى، وتعرت معه الأشياء. و لم أعد أنا على المرتفع أتأمل ذلك المشهد الذي بدا لي في ساعة خلت سماوياً، بل انحدرت، كما تنحدر هذه الفئران من فوق كتف أدهم العظمي، أو بطن جليل المنتفخ، البارزين تحت الشرشف الأبيض. كنت واحدا منهم. ثلاثة مخمورين في مكتب غير مؤهل للنوم. بين كل واحد منا وبين سريره الآمن آلاف الأميال.

كانت صور الفئران، وصور جليل وأدهم، في لحظات الحوار والصمت والنوم تتجاذبني، وفي الفواصل الغائمة بين تلك الصور المتواترة تحل لحظات غفوة متقطعة. لحظات صارت تتسع عن غير إرادة مني، حتى أخذتني واحدة وأسلمتني للحظات صباح مبكرة.

لندن ٢٠٠٥

ليلة الكابوس

.١.

استأجرت غرفةً في بيت مهجور على مقربة من القصر الرئاسي ببغداد. البيت المهجور استأجره صديق منذ عام، وعرض علي أن أشاركه السكن إن أحببت. فالبيت قديم، كبير، ومالكه مهاجر من زمن. كان الصديق يحتل غرفة الاستقبال الواسعة في الطابق الأرضي. أنا اخترت غرفة نوم في الطابق العلوي، وحولي غرفتان فارغتان تَشم فيهما رائحة المكان المهجور، وحمام. ولكني سرعان ما ألفتُ ذلك. في الطابق الأرضي، وإلى جوار غرفة الاستقبال الواسعة، ثمة جناح شبه معزول من غرفة نوم وبهو. لم أختر هذا الجناح بسبب سعته. فضلت الغرفة العليا لأنها أكثر عزلة، وإلى جوارها حمام يخصني وحدي. الصديق في الطابق الأرضي يفضل التواليت الشرقي المجاور، المزود بدُش ومغسلة.

البيت وحدة سكنية في منطقة عريقة بنيت في الخمسينيات للمعلمين، وتسمت باسمهم. إلا أنه يتميز عن نسق البيوت المتشابهة بضخامته.

أعلمني الصديق بعد أيام من انتقالي بأن المنطقة آمنة كما أعرف،



والبيت معرض لاقتحام رجال الأمن، الذي عادة ما يتم في غيابنا. لم يشعرني الأمر بالخوف، لأن رجال الأمن يستطيعون في أية لحظة أن يأمرونا بالمغادرة، أو أنهم أكثر مقدرة على منعنا من تأجير البيت أصلاً. وهم دون شك لا يجهلون من نحن، وما هي طبيعة توجهاتنا. ولعلهم يفضلون أن يتركونا أحراراً تحت المراقبة، من أن نزيغ عن أعينهم في أركان من بغداد مجهولة. هذا هو تأويلي للأمر. صديقي كان يؤمن بذلك أيضاً.

خارج مبنى البيت حديقة أمامية مازالت عامرة بالعشب، وبشجرة توت. في الخلف حديقة جرداء تماماً، فيها بضعة نخلات مهملة، وفي

نهايتها سقيفة من القصدير أغلقت المتسلقات الشوكية الطريق إليها. لم أقرب الحديقتين معاً. كنت أخرج بعد يقظتي مباشرة، وأعود مخموراً في آخر الليل. نادراً ما أصل البيت بواسطة مصلحة نقل الركاب، التي تستغرق وقتاً لا تحتمله رغبتي المتعبة في النوم. أفضل التاكسي الذي يكلفني مبلغاً يشعرني في النهار التالي بالذنب. فأنا أتقاضى مرتباً بائسا على كتاباتي الاسبوعية في مجلة لا يكاد يكفي لتغطية تكاليف الأسبوع الأول من الشهر. ولكن بفضل الخمرة كان الأمر يبدو لي منسجماً مع عناصر بؤس الحياة. البؤس الذي كان يبدو لي، لسبب ما، جميلاً ومُشرّفاً.

بعد قرابة شهر فاتحتُ صديقي عن رغبة صديق آخر لنا بمشاركتنا السكن. وكلانا يعرف أن هناك أكثر من مُتسع بالتأكيد. رحب بالفكرة، واحتل نزيلنا الجديد الجناح الأرضي، الذي يتمتع باستقلالية نسبية كما نوهت. النزيل الجديد صديق يتمتع، على خلاف مني، بسلوك بالغ التنظيم، في الملبس وفي المسكن معاً. ولكنه أيضاً بالغ التهذيب الذي ينطوي، كما أعتقد، على حذر وتوجس. نعم، هناك شيء من مسلك وظيفي في حياته. فهو حريص على دوامه في عمله، وعلى ترقيته. ولكن هذا الحرص كان يبدو لي أيضاً مظهراً من مظاهر رغبته بحياة سوية، كريمة وغير مغامرة. كان يسألني دائما سؤال الأطفال عن سر لا مبالاتي، وغياب حرصي على توفير عمل مضمون، ومستقبل آمن. كنت لا أخفي عنه رغبتي بكل هذا الذي يشير إليه. ولكن توفير ذلك يتطلب نوعاً من الثقة بالحياة لا أتوفر عليه. كان يعجب من إجابتي، وكنت أعجب بها أنا أيضاً، ولكن بالسر. الخلاف بيننا في جوهره أن صاحبي كان يعرف ما يريد، وكنت أزعم أنني أعرف.

اعتقد أن ثمرة الخلاف بين طبيعتينا تستحق إلقاء بعض الضوء. نزعمي أني أعرف، ومعرفتي في السر بأني لا أعرف، قد منحاني قدراً

من المقاومة الصلبة، والقدرة على التصبر. منحاني هذه القدرة بفعل الاحتيال الذي تنطويان عليه. احتيال عناصر عالمي الداخلي باتجاه بعضها البعض. هذا ما أعتقد. في حين أرْخَت معرفتُه بما يريد حبالَ صواريه وأشرعته، وتركت سفينته عرضة للريح. أرْختها لأن معرفته بما يريد قد سطّحت مع الأيام طبيعةَ علاقته بالحياة. فهو سريع إلى تصديق كل شيء، سريع إلى تكذيب كل شيء. سريع إلى الاستجابة، سريع إلى الانكفاء على النفس. تأتيه الأوامر من داخله لا بفعل مقاومة هذا الداخل لرياح الحياة، بل بفعل استجابته السهلة لها. إنه باختصار سهل المكسر. وسهولة مكسره تمنحه وداعة حَمل. ولكنها غير محتملة في جملتها، لأنها تنطوي دائماً على ردود أفعال وتوجسات مفاجئة وغير محسوبة العواقب.

كان «هوبي»، وهي كنية تودد أطلقتها عليه، سلواناً رائعاً في سكني. كان يعرف تفاصيل هواجسنا بشأن الطبيعة الأمنية للمنطقة، ولكن مشاركتنا الهواجس كان يهون عليه الأمر. حين أعود مخموراً أجد متسعاً للجلوس معه في بهوه الأنيق مع قلة ما فيه، فهو سرعان ما أثّث غرفة نومه بسرير ملائم، وبهوه بمقاعد مريحة. وأحياناً قليلة يفضل زيارتي في خمارة غاردينيا، ليبقى معي زمناً ثم يغادر معللاً النفس بالتجوال في شارع أبي نؤاس، قبل أن يسبقني إلى البيت. وبالرغم من أن عبد الوهاب لم يعتد احتساء الخمرة كل يوم، إلا أنه كان يحتفظ في دولاب غرفته بزجاجة عرق دائماً. وهو لا يمانع من أن يأخذ معي كأساً، حين أعود متأخراً، وأدخل عليه بهوه طامعاً بكأس إضافي.

كان يكبرني بسنتين، ولكن طبيعته الحساسة التي أضفت عليه ضعفاً ظاهراً جعلته يصغرني بسنوات عشرة. يتحدث عن سبل تحقيق أمانيه أمامي بروح المتسائل. فهو لا يجرؤ على إقرار شيء حاسم بشأن خياراته. وأنا لا أمانع في اتخاذ دور المرشد. وكنت على دراية بأنه،

هو الآخر، يجد متعة، أو راحة بالغة في الاستسلام لرأيي المشفوع أبداً بالتحليل. حين يستسلم تفيض بشرته بلون رائق من دمه، أو من روحه. وحين يلتبس عليه أمره أرقب بشرته تفيض بالعرق، وعلى طرف الأنف خاصة. وإذا تضاعف التباس أمره عليه، كنتُ أعجب من اتضاح العروق النابضة على جبينه.

أعراض كهذه في الاستجابة وردة الفعل تنم عن جسد متعاف. ولكنها لا تخفي «لا معافاة» في النفس ظاهرة، كما بينت. كان جسده مُعافى لا شك في ذلك. في حين كنت دائم الشكوى، بالمقارنة، من أضلاعي التي تئن دون علة ظاهرة أحياناً، ومن معدتي، لعلة أعرفها، معظم الأحيان. فأنا أحتسي الخمرة كل مساء، ولا مانع لدي من الاستجابة لها في الظهيرة أيضاً. وكنت أدخن أثقل الدخان. آخذ نفَساً منه عميقاً، ثم أتقصد ملاحقته في شعاب رئتيّ، حتى أطمئن إلى ألسنته وهي تمس الجمرات الدفينة فتطفئها. في حين كان هوبي معتدلاً في كل شيء. لا خمرة ولا سكائر إلا وقت تمليهما الحاجة الملحة، أو المزاج. لا زيادة وترهل، ولا نحافة مفرطة. كنت أعجب من حرصه على إرسال بدلاته إلى اللوندري، ومن تنظيف قمصانه وكيها بيديه الاثنتين دون كلل. نشاط يفرضه الواجب بتواصل دون تكلف. مع أن الأسى الذي يميز حياتي الروحية لم يكن غريباً عليه. فهو الآخر عرضة لنوبات أسى يعترف بها حين يكون معي في خمارة غاردينيا، أو حول كأس في البيت. «الفارق بيننا» كان يقول لي «أن أساك منتج، وأساي قاحل.»

كان على علم بنيتي المبيّتة للسفر. للهرب بالأحرى. وكان يغبطني، كما يقول: «ليس لديك وظيفة تكبلك.» كنت أعمل بمكافأة شهرية في حين كان يرى أن رغبته بالهجرة لا تقل عن رغبتي، «ولكن فقدان الوظيفة وخدمتها يسبب لي عامل خوف ورهاب لا أقدر على تجاوزه. لي عشرة سنوات خدمة كما تعرف، ولا ضمانة لي إذا ما هاجرت، أو

هربت كما تفضل أن تقول، في تحقيق إقامة مشروعة وناجحة في واحدة من دول الغرب.» «أنا الآخر لا ضمانة لي»، كنت أعلق، «ولكن المرء لا يموت هناك ببطء كما يموت هنا. وإذا كنت هنا أعتاش على ما أكتبه، فبأي لغة أكتب في الغرب؟ أنا لا أحسن لغة كما تعرف. أما الخوف من فقدانك الوظيفة فيبدو لي مضحكاً إذا ما قورن بغفلتك عن فقدانك حياتك.» في بلوغ نقطة كهذه كنت أشعر بتحول أسى صاحبي البليغ إلى توتر، بفعل التباس أمره عليه الى الحد الذي تبدأ صفحتا أنفه بالتعرّق.

.٢.

كان من عادته حين يزورني في خمارة غاردينيا أن لا يكمل معي السهرة حتى ينتصف الليل. كان يغادر، كما قلت، ليفرغ انتشاءه، بفعل كأسيْ العرق اللذين احتساهما معي، في التجوال الحر على شارع أبي نؤاس. ولكنه في ذلك اليوم الخريفي البارد باعتدال، جاءني على غير عهده، خامداً ببشرة ناشفة. سلم علينا، وكنا ثلاثة، وجلس. طلب نصف ربع عرق وصحنيْ مازة، الباقلاء واللبْلبي، وبادرني بالسؤال إذا ما كنت سأتأخر على عادتي. أجبت بغير مبالاة عن سبب سؤاله، ولكنه بقي صامتاً.

لم يحدث أن سهرت وحدي في خمارة غاردينيا. لي صحبة لا ترتاد الخمارة كل يوم. ولكن لا تخلو أمسية من أحد، أو أكثر من أحد منهم. كنا ثلاثة حين سلم هوبي وجلس. هدأته المنسحبة شجعتنا على مواصلة الحديث، حتى أنه، بعد فترة وجيزة، أقبل على المشاركة التي غذّت حيويته وحرارته فاتضحتا على محياه.

في قرابة الثانية عشرة أطفأت الحانة نصف أضوائها، وكنا في كؤوسنا الأخير. همس هوبي، الذي واصل معي السهرةَ على غير العادة، على مقربة من رأسي إذا ما كنا سنأخذ تاكسي، فأجبته مطمئناً. وبحرص الراغب في العودة على أثر مغادرة الخمارة قال بأن لديه أجباناً في البراد، إذا ما كنت جائعاً. وهو يعني بأن لا حاجة للتأخير بحثاً عن

عشاء على الطريق. وافقت على مقترحه فلست جائعاً تماماً، وأجبانه ستفي بالغرض بالتأكيد.

في البيت أخرجَ قطعتيْ جبنة مع خبز، وضعها على الطاولة الصغيرة وسألني إذا ما كنت أرغب بكأس. رحبت بالفكرة، لا رغبة بالكأس، بل رغبة في أن أقع على العلّة التي جعلت من صاحبي طيلة الساعات التي التقيته فيها ورقةً ناشفة. لم أغفلْ، منذ جاءني إلى غار دينيا، هذا النشاف في البشرة، والاستكانةَ للصمت، والذهولَ عما يحيطه. و لم أفاتحه بالتساؤل، إذ وجدت من الأفضل أن أمنحه فرصة الاختلاء بالنفس حتى نصل. ولأني قدرت بأن هناك متسعاً من الوقت في البيت مع الجبنة والكأس الإضافية، تركت أمر التحقق من حاله. بالرغم من أني، بفعل الخمرة أو لا، اعتبرت الاحباط النفسي لدى صاحبي عرَضاً طبيعياً فيه، أو حالة يحتاج أن يكشف عنها بين الحين والآخر. إن الضعف الداخلي وسهولة المكسر فيه أكثر تميزاً بالنسبة لي من ملامح وجهه. بعد رشفة من العرق التفتُّ إليه مستفهماً: «لستَ على بعضك؟». أجاب على الفور: «تقريباً. ما الذي حل بفكرة هجرتك، أو هربك؟» قدرتُ أنه غير راغب في الاستجابة لتساؤلي، ويفضل تغيير الموضوع.

«ما من خطوط واضحة في رأسي حتى هذه الساعة. المشكلة أني لست موظفاً فأحصل على إجازة سفر مدعومة بورقة رسمية. ولكن ليس من الصعب تزوير واحدة، أنت تعرف. كما أن تكاليف سفري وإقامتي في الخارج، ولو بصورة مؤقتة أول الأمر، غير كافية. لي صديق يعمل في دائرة التسليف قال بأني يمكن أن أتسلف مبلغ مئة دينار، على أن أجد من يكفلني، ولمّح بأنه سيفعل ذلك. فهو على يقين بأن استعادة المبلغ من الكفيل ليست واردة. لي صديق يود أن يبعث لأخية المقيم في باريس مبلغاً مالياً لا بأس بمقداره. قال بأني سأحوّل المبلغ باسمي، وسيكون فارق التصريف بين البنك والسوق السوداء من حصتي.

السوق السوداء تصرف أقل بكثير من البنك كما تعرف. إذا تمت هذه الخطوات بسلام فسأغادر وكأني تحت طاقية إخفاء. سنرى.» لم يعلق هوبي على خططي هذه. كان في بحران عالم آخر، كما أعتقد. قال إن لديه شرائط تسجيل موسيقية، ولكنه يتجنب تشغيلها الآن خشية من إيقاظ صديقنا النائم وراء الجدار. وافقته، ووقفت كأني أنتزع نفسي من حوض طيني. «الواحدة والنصف الآن. تصبح على خير.» وغادرت باتجاه الباب التي توصل إلى السلم المرمري. كنت أشعر كأني خلفت ورائي كياناً مهدماً. كياناً لا حيلة له. كان يود لو أني واصلت مكاني وحديثي. قرأت ذلك بوضوح في عينيه. ولكني لم أثق باجتهاد مخيلة سكران، يُثقلها النعاس كما يُثقل جفنيه.

بعد دقائق من دخول غرفتي، وإشعال فتيل مدفأة «علاء الدين» النفطية، وارتداء بيجاما النوم، والاستلقاء على الفراش، رأيت هوبي يفتح باب الغرفة ويقف داخل إطارها حاملاً فراشاً وغطاءً خفيفين، وهو يقول بصوت مرتجف: «هل تسمح؟ سأفرش على الأرض. لا أستطيع النوم في غرفتي. أعصابي متعبة على ما يبدو، وتلاحقني كوابيس. لعل وجودك قريباً يُشعرني بالأمان.» ألقى الفراش وغطاءه على الأرض، وهو ينظر إلي أقفز من فراشي مردداً «بالتأكيد. بالتأكيد عبد الوهاب.» أحسست وكأني مُشبع باستعداد مسبق لهذا الطارئ. وضعت الفراش إلى جانب المدفأة، وأسرعت هابطاً السلالم إلى حيث غرفته. رجعت بغطاء إضافي، فوجدته مستلقياً على فراشه، ساحباً فوقه غطاءه وهو يرتجف. ألقيت عليه الغطاء الإضافي وأنا أقول له بأن الغرفة باردة نسبياً، قياساً لغرفته. كنت أوحي له بأني أرى ارتجاف جسده وليد البرد وحده، لا وليد ارتجاف روحه بفعل الخوف. والغريب أن صوتي بدا بصورة تلقائية بثقة من يرى في الذي يحدث أمراً غاية في الطبيعية. ما من شيء يستحق ردة فعل، مهما كانت صغيرة. الحدث في جملته

يرد في سياق طبيعي. المرء الذي يكتفي ببصره في النظر إلى ظاهر الحياة يُضعف بصيرته بالتدريج. لكن هذه البصيرة قادرة، في أحيان نادرة، أن تلتقط ومضة خاطفة مما وراء الظاهر. هذه الومضة كفيلة بأن تجمّد الدم في العروق. هذا ما حدث لهذا الكيان المسجى أمامي. فما حيلته وقد ألقته الطبيعة دون مقاومة بين كفيْ الحياة المليئتين بالمخالب؟ وردت الخاطرة في رأسي وكأنها انحدرت إليه من كتاب، فشعرت بالحرج.

تبخّر النوم من رأسي، ولكني أبقيت عينيّ مغمضتين وأنا في فراشي. بعد أقل من خمس دقائق سمعت عبد الوهاب يناديني باسمي، كمن يتحدث في نومه. جئته دون أن أبدي قلقاً، وجلستُ إلى جواره. تمتم بأنه مذعور من الكابوس الذي يقتحمه ما إن يغفو. لا يستطيع أن يقاوم النوم، ولا يستطيع أن يقاوم الكابوس في آن. كان نشاف بشرته قد تشبع بصفرة باهتة. حين سألته عن طبيعة الكابوس وأنا شبه مبتسم أجاب بصوت لا يكاد يُسمع بأنه لا يعرف. فهمت منه ذلك. أخذت بيده وقلت له بأني جالس إلى جانبه. ولكي أطمئنه أكثر قفزت إلى طاولة المكتب وتناولت رواية كنت أواصل قراءتها منذ يوم أمس. قلتُ له بأني لا أشعر بالحاجة للنوم كحاجته. رائع أن أقرأ على إضاءة فتيل هذه المدفأة النفطية. ثم بدأت أقرأ، وكأني أواصل تقليداً أعتدت عليه من سنوات. كل حين ألقي بنظرة مواربة إليه علّ إغفاءة عميقة تُلم به، ولكن أنفاسه لا تنم عن ذلك، فتجاعيد وجهه مشدودة إلى بعض وتنم عن يقظة مذعورة. كنت أعتبر ذلك انهياراً عصبياً يحتاج إلى مراجعة طبيب، وإلى تناول حبوب مهدئة. وأمّلت النفس بأن أؤكد له ذلك في نهار اليوم. حين قطعت شوطاً في القراءة، والمراقبة حاولت، من باب الاختبار لا غير، أن أسحب أصابع يدي من يده، ولكن تشبثه الذي بدا لي نصف واعٍ جعلني أُلغي الفكرة. ولقد ارتحت تماما لقدرتي على احتمالي وتجمّلي بالصبر. بل على غبطتي بأني أقوم بمهمة ليست

يسيرة على كثيرين. والغريب أن مشاعري هذه بخّرت لوثة الكحول من رأسي وألغت حاجتي للنوم تماماً. حتى أني صرت أقرأ بصحو عقلي لا تعكره شطحات غفلة. أمر رائع.

كانت كفُّ هوبي تعتصر، بين الحين والآخر، أصابع يدي، وكأنها تبعث إشارة لي عن كل حين يتعرض فيه صاحبي لكابوس. إنها تُشعرني بأنه غاف تلك الغفوة التي لا تُحسن إلقاءه سليماً في النوم، بل محطّماً في هوة. ما طبيعة كابوسه؟ ابتسمت بمرارة لسخف تساؤلي. فالكابوس يأخذ مادته الأولية مما يحدث في حياتنا في نهار اليوم نفسه. إلا إذا كان يصدر عن فساد معدة. حينها تكون طبيعته نفسية خالصة. ومعرفة طبيعة كابوسه تستدعي معرفة ما حدث له. حوّلت نظري من الكتاب إلى وجهه فاحسست بأنه وجهٌ يقظ بجفنين مُطبقين. هل أنصحه بأن يجلس كما أجلس، ونقضي ساعات الليل نتحدث؟ ربما كان الأمر حينها أيسر عليه في تجنب محنة كوابيسه.

امتدت هذه الحال حتى بدت إضاءة النهار تخترق ستائر الشباك العريض الذي يحتل معظم جدار الغرفة. تأملت وجه صاحبي فرأيت تجاعيد وجهه منفرجة نسبياً، وأنفاسه لا تخلو من عمق. سحبت أصابعي ببطء شديد وقد شجعني استرخاء ملموس في يده على ذلك. أغلقت الكتاب الذي في يدي، وحاولت أن أقف على قدمي دون أن أسمح بأدنى صوت قد يصدر عن حركتي البطيئة. تركت صاحبي في غفوته التي لا أعرف مقدار عمقها، واتجهت إلى الباب أفتحها باتجاه السلم، طمعاً بإعداد كوب شاي دافئ.

.٣.

لم يستيقظ عبد الوهاب من نومه المتأخر حتى الساعة الحادية عشرة. كانت الشمس في الخارج حادة تماماً، أضفتْ دفئاً على البيت البارد لذي نسكنه. أعددت إفطاراً سريعاً لي وجلست أقرأ في بهوه، منتظراً قظته بشيء من الفضول. حين سمعت حركته في الطابق الأول تركت لكتاب واتجهت إلى المطبخ كي أعد له شاياً، وأضع خبزاً على سطح لمدفأة النفطية في غرفته. نزل هو بتكاسل، وتحت إبطيه فراشه وغطاؤه. حين دخل الغرفة توقف، يتأملني وعلى شفته ابتسامة شاحبة، تنم عن خليط من المرارة والسخرية والحرج. قلت له أن يترك الأفرشة في غرفة ومه، ويأتي ليحتسي شايه قبل أن يبرد، ويأكل الخبز الحار مع الجبنة التي عددتها في صحن. كان دخان سجائر، وكأس عرق البارحة مازالا صدران رائحتهما الثقيلة، بالرغم من أني فتحت النافذة المطلة على لحديقة الجانبية الضيقة للبيت. قلت له بصوت خالٍ من لمسة الفضول، و القلق: "جاءت غفوتك متأخرة، ولكنها كانت عميقة كفاية. حتى نها شجعتني على النوم أنا الآخر." كذبتُ ولكن بلهجة صادقة، نظرت إليه علّي أستشف من ملامحه المتعبة أية ردة فعل مكذبة، أو تشككة. ذهب إلى غرفته دون أن يقول شيئاً. حين خرج من غرفته جابني: "الحمد لله، أفضل بكثير." ومن غير أن يلتفت إلي: "أعتذر ماماً عن كل ما حدث. إنه قدري كما ترى. ولكن جيد أني استطعت

النوم." أجبته مبتسماً بأنها خبرة أشكره عليها. ورجوته أن ينسى ما حدث، ويذهب إذا توفر لديه وقت إلى الطبيب. ما من خسارة في الزيارة. حبة دواء كفيلة بتهدئة أعصابنا الحمقاء. وأضفت: "لولا العرق لحظيت بانهيارات نفسية كهذه كل أسبوع."

حين رجعت مساءً كان هوبي مستغرقاً في نومه داخل غرفته. و لم نجلس مع بعض إلا بعد يومين، حين زارني كعادته، ولكن بصورة مبكرة نسبياً، في خمارة غاردينيا. كنت وحدي و لم أُكمل كأسي الأول بعد. طلب نصف ربعه مع مازّتيه المفضلتين ثم بادرني بالقول: "تعرف، لم أذهب إلى الطبيب. لقد تلاشى قلقي مع مخاوفي تماماً. خشيت أن أزور الطبيب ويحمّل الذي حدث أكثر مما فيه، فتعاودني ليلة الكابوس تلك. الأفضل أن أترك المعميات على حالها ولا أعطيها أسماء. الأسماء تجعلها تستيقظ." دُهشت من براعة بيانه الذي لم أعهده فيه، ووافقت معلقاً: "صحيح مئة بالمئة. خاصة إذا كنت على دراية واضحة بالسبب. ما من إجهاد جسدي، روحي وعقلي إلا بسبب. يحدث عادة عن وعي منا، وعن غير وعي أحياناً." أخذ رشفة من كأسه، ألحقها بحبات باقلاء مطبوخة، وقال دون أن يلتفت إلي: "نعم، أعرف السبب وراء ما حدث. سبب ستجده مضحكاً. ولكنني على يقين بأنه هو لا غيره الذي دفعني في أحضان الكابوس. كابوس اليقظة وكابوس النوم. حين جئتك إلى البار كنت داخل دوامة كآبة سوداء. لم أستطع أن أحدثك في أمري وسط الجمع الذي كان. وحين عدنا إلى البيت كانت دوامة الكآبة قد تحولت إلى دوامة خوف لا سبيل إلى السيطرة عليه. كنت أود لو أنام. لو كانت لدينا حبوب منومة لما حدث الذي حدث. ولكن دوامة الخوف كانت تولّد كوابيس جاهزة لنومي المرتقب، حتى استعصى علي مجرد الحديث معك. لا أعرف كيف اقرّب لك الأمر. هل تذكر المرأة الشابة التي جاءتك، ونحن معاً في بار الاتحاد، قبل أن تهجره عائداً إلى

مكانك في غاردينيا؟ كانت تجلس في مكان ما، ولكنها انتقلت إلى مائدك فجأة، وكنا وحيدين. حدثتك حينها بطريقة مضحكة، مدعية، ولا ترابط فيها، عن أنها هي الأخرى شاعرة. لم تنشر بعد، ولكنها على وشك أن تنشر مجموعتها الشعرية الأولى. وأنها تعرف فلان وفلان... وصارت تضاحكك وأنت لا تُحسن الاستجابة. حدثتها أنا عوضاً عنك مداعباً، وقلت لها شيئاً قليلاً عن شخصي، وعن محاولاتي في الترجمة، وأين أعمل. كانت تفتقر إلى الجمال، ولكنها لا تفتقد إلى الإثارة وخفة الدم. هذه المرأة الشابة زارتني فجأة في مقر عملي قبل نهاية الدوام بفترة وجيزة، وقبل ليلة الكابوس بأيام معدودة. خرجت معها بعد العمل إلى مطعم مجاور دعوتها إليه. وجدتها أكثر من مغرية، وأكثر من مثيرة، وأكثر من حلوة. وبدون محاذير اتفقتُ معها أن نصرف ظهيرة يومنا التالي في غرفتي. كنت أعرف أني أستطيع مغادرة العمل مبكراً، وأن بيتنا في النهار سيكون مهجوراً منكما. وأنكما، لو حدث العكس ستتفهمان بيسر مطلبي فتخليان البيت لي. وضعت كل هذا في البال حين حددت لها الموعد، وأعطيتها العنوان. كانت متحمسة، وأبدت رغبتها في قراءة قصائدها لي، وسألتها عن شرابها المفضل، فاتفقنا على النبيذ. أعددت كلَّ شيء وأكثر في النهار السابق لليوم المأمول. جاءت في الموعد تماماً. أضفتْ على المكان بهجةً تميزت بها ذلك النهار. تخففتْ من معطفها الخفيف أصلاً ومن بلوزتها، حذائها، جوربها واستسلمت حرة للمكان وكأنها تألفه من زمن. هذا الأمر حررني أنا الآخر من كل حذر تفرضه اللياقة. حتى أني قبّلتها قبل أن نحتسي كأساً واحداً. قرأت لي عدداً من القصائد، الأمر الذي لم تتجرأ عليه إلا بعد كأس من النبيذ، وكان النبيذ لذيذاً تماماً. كنت أجلس إلى جوارها على السرير، واضعاً الطاولة الصغيرة على مقربة، محملة بزجاجة النبيذ وكأسين، وصحون مازة تتوسطها شرائح اللحم البارد. كنت في أعلى درجات الغبطة،

وعلى يقين من أنها في أعلى درجات الغبطة أيضاً. كانت تحار في التعبير عن غبطتها، بين قراءة قصيدة لها، وقبلة تختطفها، ومعانقة تفاجئني بها، وارتشاف الكأس. قبل أن نكمل الزجاجة الأولى، وللعلم فقد اشتريت محتاطاً ثلاث زجاجات نبيذ، صارت هي نصف عارية تقريباً، وأسهمت في تعريتي من القميص والبنطلون. لم أصدق كيف تلاحقت هذه المسرات وبكل هذا اليسر. مع الزجاجة الثانية ارتأت أن نتعرى تماماً. ارتضيت ذلك وكأنا طفلين داخل الماء في صيف قائض. لم ينقطع العناق ولا القبل فيما بيننا. كانت تمانع بصورة مواربة من ممارسة الجنس أول الأمر. تقول لي أن لا أتعجل. خذ الكأس. خذ القبلة. خذ القصيدة. كانت بالغة الطرافة. على أنا مارسنا الجنس قبل إنهاء الزجاجة الثانية. كان نصف الزجاجة مازال، ولكن الإجهاد حال بيننا وبينها، وفضلنا الاستراحة. استلقينا على قفانا، وأرحنا رؤوسنا قريبة من بعض على وسائد ثلاث عالية. وكما يفعل رجل وامرأة بعد ممارسة الجنس فضلنا، مع أنفاس السيجارة المشتركة، أن نتحدث. حدثتني عن فرص العمل المشروطة اليوم. قالت إنها تفضل بطالتها على بيع جسدها بمال حرام من سماسرة النظام. حاولت أن أحرف الحديث بعيداً عما بدا لي محاذياً لحديث السياسة ومخاطره. تذكرت موقع البيت، وتلصص رجال الأمن في غيابنا. والقصر الرئاسي المجاور. وانقادت عن طواعية إلى حقل آخر من الحديث: الأصل، العائلة، السكن، العلاقات. وكنت أفتقد إلى التركيز بصورة ما، لأن متابعتي لأطراف أصابعي وهي تمسح خارطة جسدها الواسعة كانت تُذهلني بالتأكيد عن متابعة حديثها بتفاصيله الكثيرة، المملة. ولكني، كمن يستيقظ فجأة، رجعت إلى نباهتي حين صارت تتحدث عن أبيها. لأن ارتجافاً غير سوي اجتاح جسدها كله، وهي تذكر طفولتها الشقية. "كان أبي كحولياً. ما كنت أعرف السبب آنذاك. ولا عرفته فيما بعد. كحولي بإفراط، وعلاقته بوالدتي تردت

بسبب ذلك. كان بالغ الطيبة معي. يحتضنني، حين يكون مخموراً، ولا ينقطع عن الحديث معي، وكأنه كان يعرض علي أسراره، مطمئناً من صغر سني، وقلة درايتي. أبي كان آنذاك في الاربعين من العمر. ولكنه بسبب الكحول، والألم الذي لا أعرف سره أيضاً، يبدو وكأنه في الستين أو أكثر. في نهار يوم شتائي بارد، قالت لي أمي، وكنت معها في المطبخ، أن أصعد السلم إلى غرفة أبي فأوقظه. "أبوك يحفر بيديه قبورنا جميعاً." جملة بقيتُ أستعيدها إلى اليوم مصحوبة بمشهد أمي في المطبخ، وفي يدها سكين لثرم اللحم. كنت لا أتجاوز العاشرة من العمر، تصور. صعدت السلم محتفية بمهمة إيقاظ أبي. كان بابه مغلقاً. ضربت عليه مرتين دون أن أسمع استجابة. من أعلى السلم قلت لأمي بأن الباب مسدود، ولكنها من أسفل السلم قالت لي أنه مفتوح، وما عليّ إلا أن أحرك مقبضه إلى أسفل. رجعت إلى الباب وتعلّقت بالمقبض الذي استدار مع يدي، ففُتح الباب. أتعرف ماذا رأيت؟ هل تتخيل ما الذي رأيت؟ رأيت جثة أبي معلقة بحبل من مروحة السقف. وجهه بعينين جاحظتين، ولسان مدلوق إلى طرف الفك، يطل علي من فوقي وكأنه يصرخ. صرخت أنا من الذعر، واستدرت إلى السلم الذي تدحرجت عليه حتى نهايته، دامية وفاقدة الوعي. هذا ما حدث لي في حياتي. وهو يحدث معي كل يوم حتى هذه اللحظة." ثم صمتت بعينين جامدتين، محدقتين دون حياة على استدارة بطنها العاري المنتفخ، وعلى مثلثها المُشعر. تجمدت أنا الآخر، و لم أجد سبيلاً إلى التعزية إلا بأن أحرك راحتي التي يبست على فخذها إلى أعلى. وقبل أن أتجرأ على الهمس بأية كلمة انتفض جسدها بفعل توتر سلكي، مصحوباً بصرخة من حنجرتها بدت لي، من فرط قوتها، وكأنها تدفقت علينا من الخارج. من النافذة المغلقة. من الجدران المحيطة، من السقف والأرض. صرختها تواصلت، ولا سبيل إلى كتمها بكفين، بفعل انتفاض جسدها

الهستيري الذي تواصل هو الآخر. صراخها بدى لي صدى مدوياً لعري جسدها، لعري جسدنا. كان العري صرخة بيضاء في ذاته. هل لك أن تتصور؟ كنت أقول لها عن غير وعي بأن صراخها سيجلب علينا كل رجال الأمن في المنطقة. ستُفتح الباب في أية لحظة، ويتدفق علينا رجال الأمن ونحن سكارى وعراة. سيطلقون علينا النار ونحن عراة. سيصوروننا، ويحملوننا بعرينا في سياراتهم السوداء إلى دائرة الأمن. كنت أقول لها ذلك عن غير وعي، وعن غير وعي كانت تتألب في صراخها، وكأني ألقي حطباً في نيران مشتعلة. هذا ما حدث في نهار ليلة الكابوس.

هل تتصور؟ بعد ساعة من هذياننا خمدتْ مثل جثة. تجمدتُ أنا منتظراً عن حق أرتال رجال الأمن التي ستتدفق كموجة جليد من الباب الحديدي. قمت عن غير وعي أيضاً فغطّيتها بلحاف حد الرقبة. وارتديت ملابسي على عجل، وحملت زجاجات النبيذ وكؤوسه ومازاته إلى المطبخ، وأخفيتها في البراد. نعم أخفيتها. هكذا كنت أشعر في تلك اللحظة، من نهار ليلة الكابوس. قرابة المغرب، استيقظتْ وهي تشعر بدوار حاد. قالت لو تستطيع أن تنقيّأ. ارتدت ملابسها وذهبت إلى التواليت. حين خرجت كانت قد استعادت هندامها بصورة من الصور، ونظرت إلي متعاطفة. شعرت بذلك حين شدتْ قبضتها على ذراعي. ثم قالت بدعة: "هل تود توصيلي إلى موقف الباص؟" أجبت بدعة مماثلة أيضاً: "سآخذ معك الباص إلى الباب الشرقي. هل هذا ملائم؟" ابتسمت ابتسامة متعبة ومريضة ثم همست "شكراً." تصور!

من الباب الشرقي جئتك إلى خمارة غاردينيا، وحدث الذي حدث فيما بعد.

. ٤ .

هاجرتُ، أو هربت إلى خارج البلد بعد قرابة سنة مما حدث للصديق عبد الوهاب. وبعد قرابة سنة ونصف من إقامتي في لندن كتب لي يخبرني بأنه هاجر، أو هرب هو الآخر، وإنه يقيم الآن في روما بصورة مؤقتة. لأن روما عاجزة عن أن توفر ملاذاً لهارب من الشرق. وإنه ينوي المجيء إلى لندن، فما الذي أستطيعه بشأنه في هذه الحال. كتبت له عن إقامتي أنا. وأوحيت له بيسر الخطوة، وفضائل لندن، وإمكانية العمل. وإنه يستطيع أن يقيم معي مؤقتاً إلى أن يتدبر أمره. وبالفعل لم تنقض على مراسلاتنا بضعة أشهر إلا ووجدت عبد الوهاب مع حقيبته أمام باب بيتي.

أقام معي زمناً، ثم عثر، لكياسته ولياقته ووداعة تصرفه، على فرصة عمل في أحد الفنادق المتواضعة التي يقيم فيها المرضى العرب للعلاج عادة. صار صاحب الفندق، وهو يوناني الأصل، يثق بصاحبي إلى الحد الذي أسلمه مفاتيح الفندق وإدارته. وكان عادة ما يزورني كل سبت لنسهر سوية على زجاجة فودكا. كان يود لو يتوفر لديه مزيدٌ من الفرص لرؤية لندن التي قرأ عنها في روايات كتّابها. ولكنه صار لا يتردد في الشكوى من قلة الفرصِ وضيق الوقت الذي يوفره العملِ الفندقي له. وأنا أهوّن عليه الأمر، وآمله بعمل لا شك قادم، أكثر امتثالاً لقانون العمل هنا في هذا البلد، بحيث يتوفر له فيه الوقت الوفير لرؤية

لندن الغنية. ومع تبادل الأنخاب نهوّن من أمر الحياة الجديدة، فيحدثني عن بعض الفرص الممتعة التي يقتنصها في فندقه. «لا، ليس من النزلاء العرب،» يستدرك محتجاً، «فأنا هارب، لا تنس ذلك، بل من بعض فتيات هذا البلد. عادة ما أذهب إلى البار المجاور بعد العاشرة. لأن أثمن شيء في هذا البلد بالنسبة للمرأة هو المكان الآمن. ولديه منه أكثر من غرفة جاهزة.»

في غمرة أحاديث كهذه يخطر لي مأزق عبد الوهاب في بيتنا المشترك ببغداد. ولكني أتجاوزه لسبب ما أجهله. على أنه، هو نفسه، لم يتجاوزه. ففي واحدة من هذه الأماسي، وهو في غمرة حديث عن مغامرة نسائية داخل الفندق، قال لي بعد أن صمت قليلاً: «أنت تذكر لا شك ذلك اليوم المشؤوم. لقد كذبت عليك قليلاً فيه. ولكني لا أشعر بالذنب. لأنه لم يكن كذباً بل تحريفاً. ما حدث مع الفتاة كان حقيقة أربكتني تماماً في حينها، ولكن ليس للحد الذي وجدتني عليه في ليلة الكابوس. الذي حدث مع المرأة كان قد سبق ما حدث في ليلة الكابوس بأكثر من أسبوع. والذي حدث في نهار ليلة الكابوس لم أجرؤ أن أتحدث بشأنه معك. كنت مذعوراً من نفسي. حتى أن نية سفري أو هربي، وهي المفردة المفضلة لكلينا، كانت محرمة على خاطري، وكأن مرورها العابر في الرأس كفيل بأن يشكل دليل إدانة لي في يد السلطة ورجال أمنها. في صباح ذلك اليوم يا صديقي اتصل بي أهلي ليخبروني بأن أخي الكبير، الذي كان معتقلاً بتهمة سياسية، قد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه. في صباح ذلك اليوم تصور. إعدام أخي الذي يكبرني سناً أصبح من اللحظة الأولى هوةً أجلس على حافتها. بل أجلس على حافتيْ هوتين. لأن هوة الذعر من اعتقالي الوشيك كانت تلاحقني في كل ثانية. الحزن الدامي والخوف الدامي حرَماني حتى من البوح لك بما حدث. لأن العراق لا فسحة فيه للعزاء أو السلوان. لا

فسحة فيه للبوح. المريع أن فكرة الهجرة أو الهرب تلاشت من كياني تماماً. في ليلة الكابوس ذاك انحدرتُ في عمق الهوتين معاً. ولكني أستعيد دائماً يدك الكريمة التي كنت أتشبث بها. العراق لا فسحة فيه للعزاء أو السلوان. هذه هي الحقيقة كلها.

لندن ٢٠١٣

حجّي اسماعيل

رن التلفون مبكراً ذلك الصباح، على غير العادة. "آني حجي إسماعيل" قال الصوت. لا أعرف شخصاً بهذا الاسم. ولكني خمّنت أن الرجل من بغداد، وأن اتصاله لا بد أن يكون لسبب وجيه. "أنا من أنسبائك، ولكنك لا تعرفني. هذا أكيد. أنا زوج ابنة حمزة، ابن خالتك. حين تركتَ بغداد كانت صغيرة ربما. ليست صغيرة الحقيقة. لو كانت صغيرة لم أُقبل على الزواج منها بعد سنتين من مغادرتك!" ثم انفجر بضحكة قلبية غاية في العفوية، حتى أني ضحكت معه، لا مجاراةً، بل استجابةً رضية. أو قل استجابة من وثق للتو بشخص، كان لثوان سابقة غريباً، ومحط ارتياب. "لقد نصحوني جميعاً بالاتصال بك. أعطوني العنوان، وقالوا توكل على الله، فتوكلت." توقف ليأخذ نفساً، "لن أكلفك شيئاً عمي فوزي. لا مال، ولا صحبة سياح. أنا ثري، والحمد لله، وشاطر. ما عليك إلا أن تعطيني العناوين المرغوبة صباحاً، وسترى كيف سأعود لك في المساء بأخبار جولتي، وبزجاجة خمر. أنا اصلّي، وأستحرم ولكني سأحملّك الذنب. اعتقد انك لا تمانع. لقد قالوا عنك انك لا تعرف صلاةً، ولا صوماً." ثم انفجر بضحكة شبيهة بالأولى، وواصل "ولكن لك قلباً من ذهب. حمّلوني بتمر أول نزلته، وربع عرق. قد تصدّق أن يُحمل إليك ربع عرق من بغداد، ولكن هل



تصدق أن حجي أسماعيل هو الذي وافق على حمله؟ عليك أن تتحمل عقاب الآخرة، عمي فوزي. أنا أكبر منك سناً، ولا أتحمل عقاباً."
وضحك. كان ضحكته، وعفوية كلامه عربون تعارفنا، وصداقتنا. قلت له بأني في الخدمة، وحاولت أن أُملي عليه العنوان، ولكنه بادرني كمن يحتفظ بمفاجأة " لا. عنوانك في الجيب. لقد أعطوني التلفون

والعنوان من بغداد. لا تكلف نفسك. سأكون معك بعد ساعة. لا أعرف كم يستغرق الطريق من "هيثرو" إلى بيتك. لن يكون طويلاً إن شاء الله. سيارات الإنكليز ديزل، عمي فوزي. وسمعتُها وصلت بغداد من سنين." وضحك. أخبرته بأني سأغادر الآن للمجلة، لأني أعمل مصححاً فيها، وسأترك له مفتاح الشقة الأرضية تحت بساط الباب الخارجي، فليطمئن. "بلاد الإنكليز أمان، عمي فوزي." أجاب، وأغلق التلفون. ولمعلومات القارئ فإن المخاطبة "عمي" مقرونة باسم المخاطَب، قد تصدر، على لسان أهل بغداد أحياناً، من الكبير للصغير، تعبيراً عن مودة ورعاية خاصة.

لم أحسب لزائر قريب من بغداد أي حساب. ولكن حجي اسماعيل، على ما بدا لي من حديثه، سلوان دافئ. "يحمل، مع صلاته وصومه، ربع عرق!" ابتسمت برضا، وسُعدت بفكرة أن أعطيه كلَّ صباح عنواناً سياحياً، يملأ عليه ساعات النهار بمباهج لندن. واضح أن الرجل ممتلئ ثقةً بالنفس. وعند عودته أكون قد شبعت من موسيقاي، وأعددت العشاء لكلينا، وتفرغتُ له. ثم سيتكفّل النبيذ بطراوة ساعات الليل. أكّدت للنفس، وكأني أُخرس صوتاً مُحتجاً في داخلي: حجي اسماعيل حياة خارج الكتاب. أنت بحاجة لحياة خارج الكتاب. حياة دافئة لا تأتيك من ذاكرتك، بل من بغداد ذاتها." أمسكت بدراجتي الهوائية التي أتركها في مدخل البيت عادة. فتحت الباب وخرجتُ. وعلى الشارع الإسفلت انطلقتُ، وكان الجو أكثر من رائع لصباح صيفي.

في الطريق ما من سيارة تزاحمني. يكفيني من الطريق نصف متر لا أكثر في محاذاة الرصيف. زحمة الصباح آلمنِ لي، لأن السيارات فيها لا تتسارع، بل تتحرك ببطء أكون فيه محسوداً، وأنا أشق الطريق بيسر. كنت اعتبرت حجي اسماعيل مفاجأة سارة، ومريحة إذا ما صح رأيه عن ثقته بنفسه. سينام في غرفة الضيوف الصغيرة. لديّ فراش جاهز

لشخص واحد، وبضعة أغطية. الشيء الوحيد الذي سأخسره مع حجي اسماعيل هو القراءة والموسيقى، التي اعتدت الانصراف لهما في ساعات الليل. ولم لا تكون إجازة استراحة من كليهما لأسبوع؟

سأجرب معه توجيهه إلى متحف مدام توسو الشمعي في اليوم السياحي الأول. سأعطيه العنوان صباح غد. أكتب له على الورقة اسم محطة الأندرغراوند القريبة التي ينطلق منها، واسم المحطة التي يستبدل فيها خطاً بخط، واسم المحطة التي ينتهي إليها. وكيف يتابع الإشارات للخروج، وكيف سيجد مبنى المتحف، والطابور الطويل من الناس في انتظاره، ما إن يخرج برأسه من بوابة المحطة. سأرسم له المحطات، والخطوط بصورة واضحة وأنيقة، طالما كنت أباهي النفس بها. فلدي ذاكرة جغرافية مشهودة. حجي اسماعيل رجل أريحي، وخيّر. هذا واضح من صوته، ومن طلاقة عبارته، وصراحتها. على أني تصورت نفسي، وأنا أنعم بهواء صباح لندن المنعش، بأني أسعى إلى إدهاشه بمزايا معرفتي بلندن. معرفتي التي بدت لي وكأنها تنطوي على معنى "انتسابي" للندن. أمر ليس بحسباني مطلقاً. لأن في هذا المعنى المستور مفاخرة ومباهاة، لا أرتضيها لنفسي مُطلقاً!

يبدو أني انحرفت قليلاً خارج نصف المتر الذي أحتله، لأن تنبيهاً من بوق سيارة أفزعني من الخلف. فاستعدت استقامة قيادتي الهوائية، وأنا ابتسم ابتسامة حرج. حجي اسماعيل يستحق مني عناية خاصة لن تكلفني جهداً، على كل حال. وهذه العناية سترضي كل أفراد القرابة الواسعة التي تركتها في بغداد.

كنت أعمل مُصححاً في مجلة سياسية عربية لمرتزقة سياسة. وكنت اكره هذا العمل، والعمل جملةً. ولكن حاجتي إليه الآن قصوى، من أجل الإقامة القانونية، وبانتظار الجنسية البريطانية، وجواز السفر. "أهلاً، عزيزي حجي اسماعيل". أقفلت الدراجة الهوائية في مدخل المجلة، ودخلت.

.٢.

حين رجعتُ إلى البيت قرابة الساعة الخامسة والنصف، وقبل أن أُخرج مفتاح الباب، وجدت الباب يُفتح، وحجي اسماعيل ملء إطاره الخشبي الأخضر المتآكل. كان صوته الأليف يسبق صورته إلي "أهلا، عمي فوزي، الله يقوّيك." تعانقنا، وأنا أحاول أن أسمعه صوتي "الحمد لله على السلامة حجي. إن شاء الله كانت الرحلة مريحة، وبدون منغصات." ولعله لم يُصغ إلى ما قلت، لأنه كان يأخذ بيدي، حريصاً كل الحرص على اقتيادي إلى أقرب كرسي، وهو يردد "استرح، عزيزي، لا بد أن تكون مُتعباً. العمل في بلاد الانكليز عجيب في طوله. من الصباح حتى مغيب الشمس! الله يكون في عون العالم. ولكن الانكليز من غير طينة." استرحت على الكرسي استجابة لحرصه، والتفت إليه رغبة في أن أُحيط بهيئته.

كان بغدادياً مئة بالمئة. هذا هو انطباعي الأول. أشيب الشعر، حليقه. مربوع، وبقامة معتدلة، تبدو لاستقامتها أقرب للطول. منشرح الوجه بفعل طبيعة فيه، أو بفعل استثارات السفر. يقف، ويتحرك باعتداد. تفاصيل وجهه ورأسه بدت لي أول وهلة، وكأنها أليق بلباس بغدادي، "سدارة" أفندي مائلة على الرأس، أو " شرّاوية" ملفوفة بعناية. ولكن القميص والبنطلون المترهليْن عليه، منحا جسده المربوع، الرياضي، حرية، ورشاقة حركة يفتقدها الكثير من العراقيين في العقود المتأخرة.

كان حنطاوي البشرة، يرتسم الشارب واللحية أشيبين، خفيفين على الوجه بصورة متعمدة. وكأنه يريد أن يترك خياراً مفتوحاً لشخصه بين الدنيا والوقار الذي يتعارض مع الدنيا المقرونة بالتصابي. بين الرجولة والشيخوخة التي بدت مواربة.

كنت في مطلع الثلاثينيات حينها، وقدرته في الخمسينيات. جلس على الكرسي الآخر، وتنفس بعمق. "أعددت لك مفاجأة، أرجو أن تُسرك."، ثم أشار إلى زجاجة نبيذ على الرف الذي يعلو الموقد المهجور. ضحكت أنا بمسرة من يلمس أريحية هذا الرجل لمسَ اليد. "ومفاجأة أخرى في المطبخ، وعذراً على التجاوزات". قفزت إلى المطبخ لأرى إناءً، وقد تكورت داخله عجينة لحم، وبصل، وبقدونس وطماطم. "واضح أنه لكباب مقلي. ولكن كيف وفرت كل هذه المواد؟" قلت بدهشة على شيء من المبالغة. "كل المواد من برادك، عمي فوزي. وحدها الخمرة اشتريتها من المطار."

تعمدت أن أضع عشاء الكباب المقلي، والخضرة التي تحيطه، على صفحتي جريدة على الأرض. "لن أغير عليك جو العائلة العراقية، حجي اسماعيل. أنا الآخر مشتاق لها. الفارق هو هذا الكأس، وأنت لا تمانع، وقد حمّلتني وزرَ عقابها. اللهم اعطني القوة على احتمال عقابك." وكان حجي اسماعيل في غاية الغبطة من طلاقتي معه، ومن جلسة العشاء هذه.

كان يرقبني بعين عطوفة، وأنا آخذ رشفات الكأس مع كل لقمة كباب حارة طرية. كنت أقرأ في نظرته العطوفة أسئلة بالغة الوضوح: كيف تستسيغ طعم الخمرة؟ كيف تُفسد طعم الكباب بطعم الخمرة الكريه؟ لم تحتسي الخمرةَ كل مساء كما تقول؟

وكنت أُعد النفس للإجابة على أسئلته. كنت أنتظر لحظات الدوار

الحلوة الأولى لكي أكون أكثر طلاقة. أكثر بلاغة ربما. وبالتالي أكثر قرباً من الحجّي المكترث لحديثي. كنت أود أن أقول له، وكأني أجيبه، وهو يصغي، بأن مذاق النبيذ لا ينتسب إلى الذائقة المألوفة لدى الناس. لا أريد أن أقول إنه أرفع وأسمى، فلا مفاضلة هنا. ومن حق من لا يستسيغه أن لا يستسيغه. بل هو مذاق ينتسب إلى نوع من حساسيات اللسان، لا يملكها كل شخص. هذه الحساسيات تنتسب بدورها إلى المخيلة لا إلى الحواس. أعرف لو أني تجاوزت هذا الحد من الحديث فستبدأ بابتلاع لقمتك دون مضغ. كان حجي اسماعيل يعلك لقمة الكباب ببطء شديد، وربما بدون اكتراث، لأنه كان يصغي لي حين أتحدث باستغراق. "طعم الخمرة كطعم القهوة من حيث عمقه. ولكنه مختلف وفريد. ثم إن تحريمها غير مُتفق عليه." كان حجي اسماعيل لا يميل إلى مخالفتي، لا بسبب استضافتي له، بل بسبب احترامه العميق لما أقول وما أعتقد. كان يكرر بين حين وآخر "أعرف من بغداد أنك شاعر". ويُثقل الكلمة بمعنى بالغ الجلال والغموض. "ثم أن هذا الطعم لا بد أن ينسجم مع طعم اللقمة التي ترافقه. ليس هناك من طعم واحد للخمرة." إنه مذاق يشبه الماء في عتمة الليل، لا تتبينه إلا عبر انعكاس إضاءة طارئة من مكان خارجه. رشفة النبيذ تشبه هذا، لا تتبين مذاقها إلا عبر اللقمة الصغير التي تطرأ عليه.

كنا نجلس على الأرض، ولا تستقر سيقاننا على حال. تنطوي تحت المؤخرة حيناً، وحينا تلتف على بعض، أو تأخذ هيئة القرفصاء. كل واحد منا يتكئ على الكرسي الذي وراءه. ونمضغ لقمة الكباب على مهل، أنا أسوة برشفة النبيذ، وهو أسوة بحديثي. كان حجي اسماعيل يتابع مستغرقاً، ويبتسم بين حين وآخر، وكأن سمعه يبلغ حديثي الخفي مع النفس. حتى أن ابتسامته غامت قليلاً حين أجبت عن سؤاله المفترض حول احتسائي الخمرة:

" نشوة الخمرة لا تترك شيئاً مُستعصياً. أنت تعرف أن انقطاع الانسان عن جذوره هنا حالة مستعصية على الحل. الخمرة تُلغي هذه الصعوبة. تجعلني أتجاوز ما أعتقده مشقات ومصاعب."

يبتسم، ثم يغيم وجهه قليلاً، وكأنه يلتقط شيئاً من حديث آخر في الظل، مستور في داخلي. حديث عن النبيذ الذي يمنح الكائن مثلي، وهو يرى أن وجوده يعتمد كيانين لا يعرف أيهما أثبت وجوداً: أول وآخر في الظل، ظاهر وخفي، قدرةً أن ينتقل من الظاهر إلى الخفي بيسر. إنه بذلك يتحرر من وطأة الظاهر، المثقل بشروط الزمان والمكان. هذا أمر عسير على الهضم. عسير عليّ، حجي اسماعيل، فكيف عليك؟

يحرّك رأسه موافقاً:

"أنا أفهم تماماً هذه المشقات والمصاعب. الله يكون في عونك. وأفهم لمَ الخمرة نافعة معك في هذه الغربة. أنت شاعر، عمي فوزي. وتحتاج أن تتخفف من أعباء ذكرياتك. وتحتاج أيضاً إلى الخيال. ما إن ألتقيتك، صدقني، حتى فهمت شيئاً من عالمك. ولعلي اقتربت منه حتى قبل سفري إلى لندن، لكثرة ما سمعته عنك من أهاليك هناك. لا أعرف لم تخيلتك تحب مكانك هذا أن يكون قليل الإضاءة. أليس صحيحاً؟ زوايا سقوف الغرفة مظلمة، وقد لا تخلو من بيوت عناكب. ثم تترك الموسيقى تأتيك من هذه الاسطوانات السوداء، وكأنها تأتي من زوايا سقوف الغرفة نفسها. هذا هو تصوري، لا أعرف لماذا. هل ترى تصوري مُضحكاً؟"

قلت له إن في تصوره شيئاً من الحقيقة. ولا شك أن حال الشقة الصغيرة البائس قد أضفى على هذا التصور درجة رمادية إضافية. فالشقة أرضية وخفيضة، قديمة ومعرّضة بالضرورة إلى رطوبة عالية. واضح هذا في الجدران. في جدران الحمام بصورة خاصة.

"هل لديك girl Friend؟"

قالها بإنكليزية من حفظ المصطلح عن ظهر قلب، من فترة وجيزة قبل سفره.

"نعم، ولكنها لا تقيم معي."

أخفيت عنه أنها عراقية الأصل، وأنها ستنقطع عني طيلة وجوده.

.٣.

حين رجعت من العمل في اليوم التالي كان حجي اسماعيل يحتل مقعداً في غرفة الجلوس مع كأس شاي. بادرني ما إن دخلت:

" لم أخرج اليوم مع العنوان الذي أعطيتني إياه البارحة. لم أذهب إلى مدام توسو. أصابني إسهال حاد، عمي فوزي، ما أن تناولت الافطار بعدك. أعتقد أني أخذت برداً، وأنا نائم."

"توقعت هذا، حجي، فالشقة رطبة كما أخبرتك البارحة. والسبب أيضاً في تغير طبيعة المناخ هنا عن مناخ بغداد. نحن نتدثر بغطاء طيلة ليالي الصيف أيضاً. ولكن قل لي كيف أنت الآن؟"

"أحسن، الحمد لله. ولكن بعد أن عالجت الأمر باللبن الرائب. أنت تعرف."

" وهل من لبن رائب في البراد؟"

"لا. ولكني حصلت عليه مع شيء من الصعوبة، لا أُخفيها عليك. حين شعرت بالإسهال، وخشية من أن يتطور ويُفسد علي هذه الزيارة، قلت لا بد من اللبن الرائب. خرجت إلى الدكاكين الصغيرة التي لاحظتها في رأس شارعك. المشكلة أني لا أعرف أن أرتب كلمتين على بعض بالإنكليزية. ولكن ليس على المضطر من حرج كما يقولون. في

الدكان الأول كان الأمر مستحيلاً مع هندي، لم يفهم من إشاراتي شيئاً. وهو مثلنا لا صبر له. أنا أعرف أن الإنكليز أكثر نباهة، وأكثر صبراً. في الدكان الآخر المجاور له كانت هناك شابة انكليزية مئة بالمئة. دخلت وبدأتُ إشاراتي، وهي لا تفهم. ولكن ملامح وجهها كانت تشجعني على محاولاتي التعبير عن مقصدي. أعرف كلمة milk، ولكنني لا أريد حليباً. وبما أن اللبن أخو الحليب، صرت أقول لها milk brother، وأنا أجمع سبابتيْ يديَّ مع بعض. وهي تبتسم، ثم تضحك. بعد تكرار الكلمة، والاشارات المعبرة من السبابتين، قادتني ضاحكة إلى جزء من براد المحل مستور عنا بالنايلون. هناك وقع بصري على كاسات اللبن. هل هو اللبن الرائب أو لا؟ أمرٌ لم أكتشفه إلا في البيت. ولكن كليهما نافع. اشتريت كاسين، وأكلتهما في الحال. صرت أحسن بكثير بعد ساعة من الزمان. لا أُخفي عليك، كنت أرغب في العودة إليها لأقول لها شكراً. أعرف thank you. نحن نقولها في بغداد. لم أذهب لأني خشيت أن تفهم عودتي بمعنى آخر. سبحان الله، نساء الإنكليز يملكن بشرة خاصة. بشرة تقول لك إلمسني."

"ولكن الإنكليز لا يمس بعضهم بعضاً." قلت وأنا أضحك.

"سبحان الله. لكل حسنة عورة!"

هذه الحادثة أكدت لي الطبيعة المرنة لدى حجي اسماعيل، وثقة بالنفس خفيفة الظل. وجعلتني أتوقع حكايات شبيهة كهذه، سيمر بها بفعل فضوله، وجرأته الواضحة، وافتقاده للغة. وسيرويها لي بالتأكيد بعد عودته كل مساء.

في المساء أعدت ثانية مخطط زيارته لمتحف مدام توسو، وأوصيته بشأن مصروفه، فأكد لي بأنه بالغ الحرص، وأنه لم يتعرض مرة واحدة في حياته لسرقة، أو فقدان.

في اليوم الثاني جاء متأخراً نسبياً. جاء وفي يده كالعادة زجاجة نبيذ لي، ودجاجة مشوية مازالت ساخنة. أعددتُ لها السلطة، وكأسي النبيذ والماء، الذي كان يفضله. وجلسنا بإقبال حار على العشاء، فكلانا جائع. حين سألته عن خبر زيارته للمتحف، ارجأ الحديث إلى ما بعد العشاء:

"سأحدثك عما حصل لي اليوم، فيما أنت تأخذ كأسك على مهل. ما حصل تحتاج روايته إلى بطن ممتلئة. وسترى بأن النباهة والحذر قد يقودان جاهلاً مثلي إلى عاقبة ليست في الحسبان."

"أرجو أن لا يكون في الأمر استغفال، أو سرقة."

"أبداً. قلت لك هذا أمر لم ولنْ يحصل لي."

بعد العشاء والشاي بقي لدي أكثر من نصف زجاجة النبيذ.

"أنا متحمس لمعرفة ما حدث حجي."

"أنا الآخر متحمس لرواية ما حدث. كان متحف الشمع يستحق الطابور الطويل، وثمن التذكرة المرتفع. خرجت منه قرابة الساعة الثالثة بمعنويات عالية. شخصيات كثيرة في المتحف لا معرفة لي بها. ولكني كنت أكتفي بمعاينة الصناعة الماهرة. توقفت كثيراً عند من أعرف. تشيرشل، هتلر، إليزابيث تايلور. أنت أخبرتني بأنك لا تحب المتحف، ولا ترغب في زيارته. أكثر من مرة تذكرتك هناك، وشعرت بصحة رأيك. ولكن تخيل عودتي إلى الأهل دون رؤية متحف الشمع. على كل حال، الحكاية ليست هنا. الحكاية بعد أن خرجت من المتحف. كان الشارع العام بالغ الحيوية، الأمر الذي شجعني على المشي، حالي حال السواح. ليس بعيداً من محطة الأندرغراونت، أعجبني مشهد شاب أفريقي جلد وعظم، يحمل على كتفه قرداً صغيراً. لم يكن حجم القرد العجيب في صغره هو وحده الذي استوقف الناس، بل حركاته

البهلوانية، واستجابته لطلبات صاحبه. المهم أن هذا الشاب كان يحمل كاميرا كبيرة مربعة الحجم، والناس تنتظر دورها في احتضان القرد، من أجل صور تذكارية. المبلغ الذي كان يدفعه الناس ليس باهظاً. صور فورية قد لا تستغرق دقائق. أعجبتني الفكرة تماماً، وقررت، شأن الناس، أن آخذ أكثر من صورة، وبحركات مختلفة. هذه ستكون عند عودتي الأكثر إثارة بين الأهل. أخرجت عشرة جنيهات، من بين المبلغ الذي أحتفظ به باحتراس دائم في جيب الجاكيت الداخلي. تقدمت للرجل، وأشرت له بأصابع يدي اليمنى، معبراً عن رغبتي باحتضان القرد، بوضعه على الكتف، على الرأس، في لقطات ثلاث. أخرج هو الآخر بدوره أصابع تسعة من كفيه، إشارة إلى المبلغ الذي يطلبه. ضحكت له، وأومأتُ برأسي علامة الموافقة. أعطاني القرد الصغير، الناعم الفرو، الدافئ الجسم، بقلب متسارع النبض بصورة مزعجة. احتضنت القرد استعداداً لالتقاط الصورة الأولى، وأمامي انشغل الشاب الأفريقي بإعداد الكاميرا، ثم رفعها بيسراه إلى عينه، في حين صار يشير لي بيمناه بأن أرفع القرد قليلاً. كنت أستجيب بسيطرة تامة على النفس. بعض الناس كان يتأملنا، والبعض الآخر يعبرنا غير مبالٍ. إلى الآن كل شيء يتم بصورة سليمة. ولكن الذي حدث، عمي فوزي، أن الشاب الأفريقي، على حين فجأة غير متوقعة، أزاح الكاميرا عن عينه، واندفع باتجاهي ماداً ذراعيه، تاركاً الكاميرا معلّقة في رقبته. كان من الواضح أنه يهاجمني. في لحظة كهذه، وبصورة ميكانيكية، لم يسكن روحي وعقلي وجسدي إلا المبلغ الوحيد الذي لدي في جيب الجاكيت الداخلي. أعرف أن الجيب مغلق بسحاب، وأعرف أن يدي اليسرى، وبصورة غير واعية، كانت تُطبق ككماشة حديدية فوق موقع الجيب من الجاكيت، إلا أن يدي اليمنى تحولت إلى معول حديدي للوقاية من هذا الهجوم المباغت. معول كفيل بتحطيم هذا الشاب الأفريقي في

لحظات. سمعته يصرخ بلغة لم أفهمها، وسمعتني أولول أنا الآخر بلغة لم أفهمها، لو أتيح لي أن أصغي لها على انفراد. حين وصل إليّ رأيت كفيه النحيفين يمتدان باتجاه القرد. وبالرغم من رؤيتي الواضحة لذلك إلا أنني اعتبرت الكفين يمتدان إلي، بل إلى جيب الجاكيت الداخلي. هذه الأشياء تحدث دون ملاحقة العقل. مشاعر الخوف أسرع بكثير من حركة العقل. استطعت بسرعة خاطفة أن أمسك بالكفين، وألويهما، تاركاً القرد الفزِع يتشبث وحده بعروة الجاكيت. ولو كانت لدي أكثر من قدرة على الانتباه حينها لارتبت حتى من حركة القرد نفسه. طرحت الرجل أرضاً، وما إن انحنيت معه حتى رأيت كفيه تسرعان إلى الإمساك بالقرد. وما أن حقق هذا حتى رأيته يحاول الإفلات من بين يدي. دفعني بساقيه وانتفض متعثّراً، باتجاه الشارع هو والقرد والكاميرا. مددت يدي اليمني على جيب الجاكيت فأحسسته مغلقاً بسحّابه كما كان، مع معرفتي اليقينية بأن يد الشاب الأفريقي لم تمتد إلى هناك في أي لحظة من لحظات الحدث العجيب الخاطفة. الأمر كله لم يأخذ من كلينا أكثر من دقائق. هل تصدق؟ ما أن استرجعت أنفاسي حتى رأيت شرطيين هادئين يصلان إلى المكان، حتى دون أن ينتبها إلى كل الذي حدث. خطوت قليلاً باتجاه الحاجز الحديدي للرصيف، هناك توقفت أتأمل مكان المشهد والناس. رأيت أكثر من شاب أفريقي، وصيني يسرعون بأشياء يحملونها، عابرين الشارع، تحاشياً للشرطيين. والناس القريبون ينظرون دون اهتمام واضح بالذي حدث. بعضهم كان ينظر إلي بشيء من الحيرة. هل كان كل الذي فعلته مع الشاب الأفريقي محض خطأ، ووليد سوء ظن ليس في محله؟ أعتقد أن الشاب المصور مع قرده يمارسان عملاً في الشارع العام دون إجازة. مشهد الآخرين الذين أسرعوا مع أشيائهم مبتعدين أكد لي هذا الاعتقاد."

. ٤ .

لم يتوقف حجي اسماعيل عن الإشارة إلى صحته، وقوته الجسدية، كلما وجد إلى ذلك من سبيل.

" ولكن هذه القوة، صدقني، لم تكن وسيلة أذى. أنا أحب الحياة والمتعة، عمي فوزي. ولقد منّ الله علي بنجاح متواصل في عملي كمقاول، ورجل أعمال. كانت لدي أكثر من شاحنة نقل بين بغداد والمحافظات. بدأتُ حياتي سائقاً ماهراً، تعتمد عليه، لواحدة من هذه الشاحنات الكبيرة. ثم اتسعت الفرص حتى جمعت ثروة والحمد لله. هذا أمر لا أخفيه عنك. فأنت جزء من العائلة."

"ولكني أراك رجل متديّن أيضاً!" قلت له، "أديت الحج ربما أكثر من مرة، وتؤدي الصلاة والصوم في ميقاتهما. هل بدأت حياتك كذلك؟"

"لا. كنت مثل كل الشباب. تعرف. بقيت كذلك لفترة متأخرة. وعلى أثر حادث اهتديت. ولكني كنت، ومازلت حتى اليوم، أكره التعصب. أشعر أن الناس أحرار إلا فيما يضر ويؤذي. وإلا فما المانع على مصل مثلي، من التمتع بالنظر إلى كل هذا الجمال الذي أراه في المرأة الانكليزية؟ قل لي. التمتع بالنظر وحده." وضحك براحة من يعرف أن المستمع إليه لا اعتراض لديه.

"ما هذا الحادث وراء هدايتك؟"

"حادث كريه. كنت أقود سيارتي الشخصية في ظهيرة صيف، على مقربة من ساحة التحرير، في الباب الشرقي. سبقتني سيارة أمن، وأوقفتني. وأنت تعرف رؤية الأمن ماذا تعني، في الفترة التي أصبح فيها السيد النائب رئيساً للجمهورية." قال الجملة الأخيرة بطريقة أقرب إلى الهمس. ولا غرابة في الأمر. "ثم أشار أحدهم لي أن أخرج من السيارة، وبلهجة معادية، صرخ في وجهي: قبل دقائق قطعت الطريق أمام باب وزارة الإعلام، و لم تلتفت لخروج السيد الوزير. قلت له أنا أعتذر، لأني لم أنتبه لذلك. فأجابني بلهجة أكثر عداءً: لأنك أعمى. وشتمني. وبدون وعي مني اندفعت باتجاهه، دون أن يكون لدي هدف. اندفعت وتوقفت بصورة غير واعية. وعلى الأثر رفع يده اليمنى وأنزلها على صفحة وجهي بعنف، وهو يشتم. لحظتها، عمي فوزي، لا أعرف ما الذي أصابني. فقدتُ الوعي تماماً. أحسست بأن قوة في داخلي لا تُقاوم، تندفع لتحطيم جمجمته. كنت قادراً على تهشيمه، وربما قتله. لم أعد أرى أحداً إلا هو. ولكن في ثانية، وأنا أهم بالانقضاض عليه، انتابني خوف. خوف من النوع الذي يرتبط بالمسؤولية. لا أعرف كيف أعبر لك. تجمعت كل وجوه أبنائي أمامي، وأنا أقاد إلى السجن المؤبد، أو الإعدام. أنا لست جباناً بالمرة، ولكنني رجل خيّر. الغريب أني رأيت، ومازلت أتذكر، وجه رجل الأمن باهتاً، وهو ينظر إلي. أعطاني وجهه مزيداً من إرادة السيطرة على النفس. انسحبت بهدوء إلى سيارتي، وانصرفت. في البيت لم أخبر أحداً بما حدث. أحسست بأن السيطرة على النفس، لم تُقبل بهذه القوة إلا من عند الله. أرادني الله أن أواصل الحياة، من أجل العائلة. وأنت تعرف أن لي عائلتين. في يومها قررت أداء فريضة الحج، والتزام الصلاة والصوم، والزكاة أيضاً." كان صوته يرتجف قليلاً، ووجهه يشحب.

لم أُفرّط بالوقت في الشكوى مما حدث. ما حدث له وما حدث لنا، وللناس أجمعين. هو على علم بالتأكيد بكل تفاصيل تهجير الناس من معظم مناطق كرادة مريم، ومن محلتي العباسية. أبناء المحلة من الأهل والأقرباء تفرقوا، وتوزعتهم مناطق بغداد النائية. ولا يجتمعون ببعض إلا في مناسبات الوفاة والزواج. هو يعرف تفاصيل كل ذلك. كما يعرف تفاصيل منطقتنا القديمة، ومنطقة كرادة مريم الواسعة:

" مناطقكم حينها كانت نهباً لأصحاب الثروات من العوائل الغريبة. هذا الأمر يعود إلى أيام العهد المُباد. كان للملك قصر هناك، ولولي العهد قصر هناك، ولنوري السعيد قصر هناك. وهناك تأسس البرلمان، والقصر الجمهوري. كان جدك من أمك يملك نصف مزارع الباذنجان في المحلة. حين شرعت الحكومة بتمليك الأراضي رفض جدك، الله يرحمه، أن يتملك. يُروى انه كان يستحرم. الشيعة كانوا يرون هذا الرأي. الله يسامحهم. وإلا لكنت اليوم ثرياً، عمي فوزي."

"أو بعثياً!" علّقتُ ضاحكاً.

"أعوذ بالله."

كان المطر قد بدأ هادئاً كعادته منذ ساعة. وهو يزداد ببطء، ويُصدر صوتاً في الخارج رتيباً، حلواً، جعل حجي اسماعيل يتململ بنشوة من يكتشف نفسه في لندن فجأة، وفي ركن آمن منها. أحسست بذلك من رشفات الشاي التي كان يعالج مذاقها في فمه.

" أعرف كرادة مريم هذه من زمن بعيد، قبل أن أتعرف بأقاربك، وأتزوج منهم. كانت بساتينها مازالت على حيلها. أيام كانت الناس فيها تعيش على خيرات التمر والأسماك. لعلك تذكر ذلك أنت أيضاً. ما عتّمت الأيام إلا بعد مجيء الجماعة." الجملة الأخيرة جاءت هامسة. "وإلا ما أحلى التمر والسمك مع راحة البال."

"هل كنت تسكن منطقة مجاورة؟"

" العائلة من الشواكة. ليست بعيدة. بل هي امتداد لكرادة مريم. أنت تعرف."

"نعم. الشواكة جزء من قلب بغداد القديمة المكتظة بالسكان. نواحينا كانت أشبه بالريف. اسم كرادة جاء من الكرود، وهو السقي من دجلة، على ما أعتقد. ومريم أضيفت نسبة إلى ضريح امرأة صالحة، أصبح مزاراً، ثم مقبرة للأطفال. لا أعرف إلى أي عهد يعود ذلك. ولكني أذكر أن الأهل، وكل أهالي المناطق المجاورة، كانوا في مناسبات خاصة كل عام، يزورون الضريح، ويحيون هناك نهارات بهيجة، ينعمون فيها بالطعام والغناء. نهارات للنساء والأطفال، على الأغلب. بعد تهجير الناس، هُدم الضريح، ورُدمت المقبرة."

"مع هذه المقبرة التي ذكرت، لي حكاية أقرب للخيال، حدثت أيام الشباب. أرويها لك. كنت أيامها أعمل سائقاً لشاحنة، تنقل البضائع بين بغداد والمدن المحيطة بها، ومدن الجنوب بصورة خاصة. كانت أيام خير. كنت أنعم، إلى جانب الراتب، بحصة شخصية من البضائع، تأتيني من مكتب العمل. حتى السمك الذي كنت أنقله. تصوّر.

"في شتاء أحد تلك الليالي الباردة، من سنوات ما قبل ثورة عبد الكريم، كان علي أن أقطع بغداد، ببضاعة من العمارة إلى سامراء. حين وصلت أطراف بغداد على واحدة من هذه الطرق الخارجية غير العامرة، أحسست بعدم ارتياح من أصوات كانت تخرج من ماكنة الشاحنة بين الحين والحين. كانت لي، وما زالت، خبرة واسعة في كل ما يخص الشاحنات الكبيرة. لم أشم رائحة احتراق، الأمر الذي صبّرني قليلاً حتى أدخل بغداد. هناك أكثر من مكان ملائم، أستطيع فيه الوقوف لفحص الماكنة، وللاستراحة. أو حتى النوم قليلاً.

"دخلتُ بغداد عند الثانية ليلاً، من جهة بساتين الكاورية، والكرادة التي تليها. ومع ازدياد أصوات الشاحنة الغريبة قررت أن أقف في أقرب ركن، أستطيع فيه أن أضمن مكاناً كافياً للشاحنة. كانت عتمة الليل شديدة، وكذلك برده. إلا أن المنطقة التي يتزاحم فيها النخيل، كانت لا تخلو من إضاءات للطرق خافتة، تكشف عن أشباح بيوت بعيدة تتراكم حيناً، وحيناً تتفرق.

"أصدرتْ الماكنة نهْدةَ استراحة، ما أن أطفأتُ محركها، فشعرت بثقل الحمولة. نزلت من غرفة القيادة الواسع، وعلوت غطاء العجلة الأمامية لألقي نظرة فاحصة على المحرك. كان معدن الشاحنة شديد البرودة بصورة فاقت تصوري، وكذلك الهواء الذي أحاط برأسي كقبضة إبليس. ولأن الضوء من أعواد الكبريت التي في يدي لا يكاد يكشف عن أي تفصيل داخل الماكنة السوداء المعقدة، فكرت أن أرجئ أمر الفحص إلى الصباح. إضاءة الشمس ودفؤها سييسران الأمر أكثر دون شك. عدت على عجل إلى داخل غرفة القيادة، طمعاً بشيء من الدفء.

"أخرجت من صندوق خلف المقعد غطاء لا ثقل فيه، وألقيته على نفسي. وصرت أتمنى كأساً كبيرةً من الشاي. وحتى سيجارة، بالرغم من أني لم أكن مدخناً. حاولت أن آخذ غفوة أقطع فيها صمت الليل وبرده حتى الصباح، وغفوت فعلاً، ولكن لفترة قصيرة، استيقظت فيها بفعل البرد. أحسست، وكأنْ لأول مرة، بأن غرفة القيادة معدنية حقاً. فالبرد صار يتضاعف بفعل المعدن الموصل. صار يتسرب إلى عظامي، وأنا أتعجل ضوء النهار. فكرت أن أقفز، وأهرول إلى واحدة من هذه البيوت البعيدة، أطلب ملاذاً. ولكن يا للحرج الذي انتابني. ما الذي يقوله الناس لو حدث بالفعل أني طرقت عليهم الباب في هذا الليل. استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت أتصبر. فلدي القدرة الكافية

على التحمّل بضعة ساعات قليلة. وأقول لك إن الخوف من الظلام المحيط، أو أي شيء منه، لم ينتبني طيلة الوقت. فلي قلب أصلب من عضلات الجسم. غير أن البرد وحده كان الكافر. البرد أو الخوف من تضاعف البرد.

"بعد فترة من التحديق من وراء الزجاج، في كتلة الظلام التي تجاورني، صارت تتضح معالم مبنى ضريح صغير، على بعد قرابة عشرين متراً. مبني دائري مُضلّع، بنافذتين صغيرتين وباب صغير يتوسطهما. هو هذا المبنى الذي تعرفه أنت، ويعرفه كل أهالي كرادة مريم. مبنى ضريح السيدة الصالحة مريم. لا معرفة لي به من قبل بالتأكيد. ولقد لاحظت ظلّ إضاءة لا تكاد تبين داخل الضريح. إضاءة شمعة صغيرة على الأرجح. أو فتيلة صغيرة. الأمر الذي حفّزني إلى التفكير في الذهاب إليه، وقضاء هذه الساعات الثقيلة حتى مطلع الفجر. ولو أني تبينت، وأنا أكتشف الضريح الطيني هذا، أن مقبرة، مهما كانت أعمار موتاها، تحيط به على السعة التي هي عليها، لما فكرت ثانية باللجوء إليه. لي قلب حديد كما قلت لك. ولكن الحديد يلين في أوجه الموتى كما تعرف. لا مزحة في الأمر.

"على كل حال، ولا أحب أن أطيل عليك، هممتُ أن أترجّل من غرفة القيادة، حازماً أمري بصورة لا رجعة فيها. تأملت المسافة المعتمة التي تفصلني عن باب الضريح، فقدرت أنها قد تستغرق دقيقتين، أو أقل. هذا إذا لم تعترض طريقي ساقية، أو حفرة، أو دغل. من يعرف؟ فالظلام سيد الأسرار. توكلت على الله. التقطتُ قطعة الغطاء الصغيرة، فهي لا بد ذات فائدة هناك، ورميت بقدميّ إلى الأرض. بدأت خطواتي إلى مكان الإضاءة الميتة مثل أعمى لا يقوده دليل. أتردد في كل خطوة، وأتعثر، وأقف. أحدّق في الأرض، ولا أتبين طبيعة التربة التي تحت قدمي. إنها لم تكن طريقاً بأي شكل من الأشكال. فهي في

كل خطوة ترتفع قليلاً، ثم تنحدر في الخطوة التي تليها. وأحياناً أخرى تقفز قرابة نصف قدم، مثل رصيف. وعلى هذا المنوال قطعت المسافة في أكثر من عشر دقائق. حين بلغت الباب الخشبي المتآكل، والنافذتين اللتين لم تكونا في حقيقتهما أكثر من زجاجتين مؤطرتين، لا يكاد يبين ما وراءهما بفعل القدم، توقفت هناك واستدرت أتأمل الشاحنة التي بدت، بالرغم من شكلها الأليف، أشبه بحيوان كاسر من الأساطير. ثم ألقيت نظرة فاحصة على الأرض التي تفصل ما بيننا. ولدهشتي رأيت أن هذه الأرض ليست إلا مقبرة، تحيط بالضريح من كل جانب. كانت سعتها في هذه الجوانب محدودة نسبياً. عرفت ذلك من كثافة النخيل، والأشجار التي تحيط بها. الطريق الذي أوقفت به الشاحنة هو الوحيد الذي يدخل المقبرة، من الطريق الإسفلتي العام. كانت دهشة مشوبة بدعوى للخوف. لو كنت أعرف ذلك، لما ترجلت من الشاحنة وقطعت هذا الشوط في العتمة. لم أكن خائفاً بالصورة التي يمكن لك أن تتصورها. ثم إن استنتاجي السريع بأنها لا بد أن تكون مقبرة أطفال، قد هوّن من الأمر قليلاً. الناس لا تدفن موتاها في مقبرة كهذه. مقبرة تعود إلى ضريح صغير، بائس كهذا. المسلمون سنة وشيعة لهم مقابرهم الكبيرة المعروفة. صحيح أن مجرد كلمة مقبرة في هذه العتمة كفيلة بإثارة الرعب. الموت يظل موت، عمي فوزي. ولكن الموتى الأطفال غير الموتى الكبار. الموتى الأطفال لا يتحولون إلى أشباح. هم يتحولون ملائكة طاهرة ما أن يأخذ ملك الموت أرواحهم. إنهم لا ينتظرون مثلنا يوم الدينونة. هذه الأفكار شغلتني لدقائق، ودفعت عني الخوف، أو قل خففت منه. بل هي أنستني البرد، فتوقفت عن الارتجاف. على أن الأمر لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما عاودني، وصرت أختض مثل السعفة. من البرد أو الخوف لم أعد أعرف؟ قررت في ثانية أن أفتح الباب الصغيرة المتآكلة وأدخل. قليل من الدفء متوقع، قد يخفف من ارتجافة الخوف أيضاً.

"حين دفعت الباب أحسستها تتحرك، ولكنها لم تُفتح. لم أستخدم كلَّ قواي، لأن حركة الباب توحي بأنها قد تتهاوى بين يدي إذا ما فعلت. أخذت الأمر باللين. شعرت كأن حجارة وراء الباب، أو خشبة، أو مجرد ثقل فيها جعلها، بفعل الزمن والمطر، تستند على الأرض. واصلت المحاولة بيد قوية، ولكن مرتجفة، وصرت عن غير وعي أكرر "البسملة". اسم الله يصون النفس من عبث الشيطان. صار الباب يلين بين يدي ويُفتح قليلاً، قليلاً، بالمقدار الذي مكنني من الدخول. ولكن ما حدث على أثر دخولي كفيل بإيقاف أي قلب عن الخفقان. ولعل قلبي توقف هو الآخر عن الخفقان في تلك الدقائق. لم تُتح لي الثواني الخاطفة، وأنا أغلق الباب ورائي بظهري، من أن أرى حتى مصدر الضوء داخل الضريح. كل الذي أتذكر أني رأيته واضحاً: قماشة خضراء مهترئة، تغطي قبراً أبيض حائل اللون من الجص. ثم انقطع كل شيء عن وعيي، لأن كتلة ثقيلة مصحوبة بصرخة أطرشت سمعي في الحال، انقضّا عليّ. هل هو طائر من الآخرة؟ هذا ما أذكر أنه خطر لي، عن غير وعي طبعاً. لأن الكتلة لم تكن حجارة، أو أي شيء. بل كانت كتلة حيّة، أحاطت بكل جسدي الذي لم يعد يرتجف، لا خوفاً ولا برداً. جسد ميت إن أردت الحق.

"سقطتُ على الأرض جثةً فقدت حواسها تماماً. ولقد احتجتُ دقائقَ لم أحسب مقدارها لكي أعاود الإحساس بما جرى. أحسست، وأنا مُغمض العينين، بأن الكتلة التي انقضت عليّ كتلة حية، تُخرج زحيراً. أحسست بخشونة حبال تحكّ رقبتي، وبملاسة بشرة لذراعين آدميين يحيطان بها. ملاسة متسارعة النبض. وبكتل شعر كريه الرائحة يغطي وجهي. ما الذي حدث؟ أمر لا يمكن لي، ولا لأي أحد أن يستنتج منه شيئاً. بقيت خامداً تحت الكتلة الحيوانية، متبلد المشاعر، مُعطّل الذهن. وهذه كلها رحمة من رب العالمين. أعني هذا التبلد

وتعطل الذهن. بقيت خامداً على هذه الحال دهوراً، حتى بدت خيوط الفجر تخترق زجاجة النافذة الصغيرة، وتكشف لي عن الخرقة الخضراء المهترئة للقبر. ولا شيء آخر حولها. ومع الضوء استعدت شيئاً من نباهتي وقوتي. لم أعد أرتجف. العجيب أن الفضل يعود في هذا إلى الجسد الذي يحيطني. كان جسداً جعله نبض القلب فيه دافئاً. وبفعل النباهة والقوة اتخذت قراراً حاسماً، أن أنفض عني هذه الكتلة الحية التي تحيطني، مهما كان جنسها. ولا أخفيك بأني ألفت الكتلة الحية بفعل نبض القلب فيها. سبحان الله!

"فعلت ذلك بأن جمعت قوتي استعداداً للوقوف على قدمي. ومع صرخة غير واعية صدرت مني، وصرخة مثل الصدى صدرت عن الكتلة التي تحتضنني بعنف، وثبتُ بقوة ونفضت الكتلة بعيداً. شعرت بذلك، الأمر الذي مكنني من أن ألتفت لأرى. وماذا رأيت، عمي فوزي؟ لا تصدق. امرأة. فتاة ثخينة لا تختلف كثيراً عن الحيوان. حالكة البشرة بفعل الوسخ المتقادم. شعر ممزق يغطي نصف جسدها. وجه مستدير أسود، تتوسطه عينان واسعتان بصورة غير طبيعية، بفعل مرض، أو خوف مزمنين. لا يكاد الثوب الذي ترتديه أن يستر نصف جسدها. لها تكشيرة مخيفة، ولكن آدمية، عمي فوزي. كل شيء فيها آدمي. مربوطة بحبال خشنة، عليها آثار براز وتقيؤ. مشهد لا أستطيع وصفه.

لم أفهم أول الأمر معنى لكل هذا. شيء يشبه كابوساً. احتجت فترة من الوقت لكي أستعيد ذاكرتي. المقبرة. الشاحنة. برد الليل. الضريح. فتحت باب الضريح وخرجت إلى الشمس، التي بدت لي ساخنة كفاية. خطوت باتجاه الشاحنة، عابراً بخطوات عريضة القبور الصغير المتلاشية. وقفت عند رأس الشاحنة أنتظر أول مخلوق يكشف لي سر المشهد. لم تعد لي القدرة بعد لمعاينة الماكنة، وطبيعة الخلل الذي فيها.

كان يهمني أول كل شيء أن أرى أحداً أروي له ما حدث. وأن أحصل على سر هذا الآدمي الحبيس في ضريح السيدة مريم.

لندن ٢٠١١

مراعي الصَبّار

.١.

في طريقي من مطار هيثرو الى البيت أخبرتني زوجتي السابقة التي تبرعت بنقلي من المطار، بأن شريف الربيعي مقيم في المستشفى منذ العاشر من آب. هناك شكوك، قالت، حول المرارة. حول أورام لم تُخفِ ليلي قلقها بشأنها. ولأني رجلٍ موسوس بطبعي، كنت أعتقد أن كلِ أسفاري، التي أتشبث بها طلباً للراحة ودفع الملل، أو الهرب أحياناً، ترتبط بأحداث غير سارة تفاجئني عند العودة. وبذلك يصير التطيّر جزءاً متمماً من مشاعر المسافر.

كان مناخ الصيف اللندني منعشاً. فغياب أقل من أسبوعين كفيل باستثارة الرغبة في تعزيز العلاقة مع هذه المدينة التي لا تكف عن مفاجأة ساكنها، إذا ما كان مغترباً مثلي، بأنها مدينة ذات فضائل محفزة للامتنان. طريق المطار الموصل الى البيت يتمتع بسعة، وغابات غير منتهية، وأفق صيغ للمدى الذي تحتاجه الطائرات في التحليق. وهو فسحة لاستقبال الزائر أو العائد، سرعان ما يضيق حين يدخل المدينة التي اعتادت الشوارع الضيقة. على أنه لا يستغرق أكثر من نصف ساعة دون زحمة.

والأيام الإثنا عشرة التي صرفتها في مدينة لوزان السويسرية، في ضيافة الرسام وكاتب القصة سعيد فرحان، كانت عرفاً ابتدعته مع



السنوات. فلوزان مدينة صغيرة تقع على منحدر باتجاه بحيرة لوزان، التي تمتد حتى العاصمة جنيف. منتجع حقيقي للزائر الذي يتمتع بثروة معقولة. ولأني لا أنتمي لهؤلاء، ولأن الصدفة ألقت بصديق مقرب على منحدر من منحدراتها، رحت أنتفع من واقع يبدو متناقضاً، فصرت، شأن الأثرياء، صاحب حصة في منتجعهم. لا أكاد ألتقي سعيد إلا في الليل، وفي النهار أنصرف للنفس على الشريط الضيق الخاص بالمشاة،

يحاذي البحيرة دون نهاية. متأملاً التعارض القاهر بين سطح البحيرة الوادع والمرتفعات الكاسرة المكللة بالبياض لجبال الألب.

مع الموسيقى طمعت أن اقتصر في هذه السفرة على الموسيقى الهندية. وعلى المغني "القوّالي" نصرت فتح علي خان. كنت قرأت ما كتب عنه في المطبوع الملحق بمجموعة اسطوانات السي دي، بنية الكتابة عنه في عمودي الموسيقي. لأن نصرت فتح علي خان، الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والأربعين، كان قد توفي قبل يومين من وصولي لوزان، على أثر عملية جراحية غير موفقة لكليته. وبأيام متقاربة بلغنا موت الشاب حيدر ابن الشاعر الصديق سعدي يوسف، في إحدى مدن الفلبين القصية. ومعه خبر وفاة الجواهري في دمشق عن عمر تجاوز التسعين.

في اليوم الثاني من وصولي اكتشفت بعض التفاصيل المفزعة عن الصديق الراقد في مستشفى Ealing. عرفت أن أوراماً سرطانية فتاكة قد نمت منذ عام، على ما يبدو، في المعدة، وتجاوزتها الى البنكرياس والكبد. كانت هناك أعراض ما قبل دخوله المستشفى بفترة طويلة، ولكنها لم تؤخذ، لا من قبل شريف ولا غيره، مأخذاً جدياً. أعراض تقيؤ، وإحساس سريع الزوال بالعجز عن الحركة. حدثت الأعراض الأولى في بيته، حين التففنا على وجبة سمك مجفف لم نحسن إفراغها من ملوحتها، أو طبخها. والثانية في مطعم هندي مجاور لبيت شريف كان قد دعاني إليه بمناسبة زيارة صديقه عبد القادر الجنابي من باريس. في كليهما انتفض شريف الى التواليت وغاب هناك بصورة ملحوظة.

أما حالة العجز عن الحركة فقد حدثت يوم سافرنا سوية الى المغرب. كنت حينها قد حصلت على تذكرتيْ سفر من صديقة حصلت عليهما بدورها مجاناً، ولكنها لم تستطع السفر لعارض. فلم أجد أيسر من شريف للرفقة، التي استجاب لها عن طواعية من يتقبل دعوة شاي. في مطعم إيطالي في مدينة الرباط، وقد دعانا الصديق الروائي محمد برادة على أثر أمسية لنا في اتحاد الأدباء، كنت أنا وشريف ومحمد أمام ثلاث

شرائح لحم بقري، اقترحها علينا رجل الخبرة. مع زجاجة نبيذ أحمر. اقتطع شريف طرفاً فوجد أن اللحمة لم تشوَ على الطريقة العراقية، وأن ملامح حمرة الدم ما زالت ظاهرة. أرجع النادل اللحمة من أجل مزيد من النار، وعاد بها أكثر دكنة. وباشرنا الأكل والحديث. على أن شريف لم يكن مستريحاً بعد عدد من اللقيمات. استأذننا الى التواليت، وهناك تأخر قرابة عشرين دقيقة. عند عودته قال لي أن رغبة بالتقيؤ، وحالة من العجز الكلي عن الحركة ألمتا به فجأة في التواليت. وانصرفنا الى كؤوس النبيذ، فيما هو انقطع عن الأكل والشرب معاً.

في العاشر من آب، وكنت حينها في لوزان، انتابت شريف في بيته الحالة ذاتها، بحضور صديقه المقرب جمال حيدر، ولكن بصورة أكثر إلحاحاً، دفعتهما فزعين الى المستشفى. وهناك أخضع جسده للفحص والتحليلات العاجلة. في اليومين التاليين ساورت الشكوك الأطباء، وبدأت مع الشكوك رحلة الرجل، الذي امتاز عنا جميعاً بخاصية الهلع من المرض، علناً باتجاه موته، الذي بدا للجميع محققاً، ولكنه مؤجل لمدى قصير لا نعرفه.

ذهبت اليه، في زيارتي الأولى، وأنا فاقد كلّ استعداد لاحتمال أذى لا قدرة لأحد على تحاشيه. وكم شقّ علي الحديث معه لحظة اللقاء. لم تلن روحُ الدعابة لقدراتي السابقة معه. هذه الروح التي ألفتها في نفسي مطواعة في أية لحظة أعود بها مريضاً. لأن طبيعة مرض شريف التي فاجأتنا جميعاً، لم تكن تنطوي على معنى العزلة داخل الحياة. العزلة التي يفرضها المرض المزمن مثلاً. ولكنها عزلة تجلس منتظرة على حافتها: الإطلالة الموحشة على النهاية. لم أستجب كثيراً هذه المرة للانقياد الى المشارف القصوى. لأني ما كنت لأحتمل التحديق في ذلك العالم المشبع بالألغاز. كنت أعرف أن لدي من الوقت، مع شريف، للتحديق في التفاصيل ما يكفي، على امتداد أيام وشهور غير مقدرة حتى الآن.

.٢.

في الزيارة الأولى استقبلني شريف بنظرات حاول، عن إرادة كما يبدو، أن يشبعها بعلامات الاستفهام والدهشة مما يحدث. حاول عن إرادة أن يسبق استفهامي ودهشتي ليُخرسهما، ويُطفيء حرارة الحقيقة فيهما. هذا شأن المروِّع من الحقيقة كما أفهمه. كان يريد أن يقول لكلينا: كم هو مثير للاستفهام والدهشة أن أنقل الى هذا السرير، وأُثقل بكل هذه الأنابيب، دون سببٍ أو علّةٍ ظاهرين!! ولكنه كان يعرف في موطن السريرة أن من يُنقل الى السرير ويُثقل بهذه الأنابيب على عجل، تحت وطأة صمت كهذا الصمت، لا بد أن يكون لعلة قاهرة. كان يعرف، وأخفى معرفته في موطن السريرة. كنت أخشى أن أكون قد خيبت أمله بفعل الإحباط والخرس اللذين ألما بي، وأقعداني أمامه دون تدفق ودعابة ومواساة. كان خيالي يسبقني مسافة لا قدرة لسطوة العقل على اجتيازها، واللحاق به. فكل حالة مرض تملك لغة احتيال خاصة على النفس، إلا هذا المرض.

كان وجهه شاحباً قليلاً. وعضلات فخذيه طرية مسترخية. وصفرةٌ، تُضفي عليها شمس آخر الصيف جفافاً، تجتاح حرّةً كلَّ خلايا بشرته. فكرت لو أن هذه الزيارة كانت في بيته، دون أخبار مرض ولا مستشفى، أكانت هذه الصفرةُ والشحوب كفيلتين بإرسال قشعريرة برد كهذه القشعريرة التي دبت كالنمل تحت ثيابي؟ فكرت من جديد

بالحاسة الرائية التي تستيقظ فجأة، والتي تبدو إزاءها كل قابليات الحواس الخمس قاصرة وثانوية. كانت القشعريرة تهب من مرتفعات تلك الحاسة. من قممها الثلجية المتوحدة الموحشة.

الزوار الذين عادوا شريف من أول يوم دخوله المستشفى كانوا أكثر عدداً مما يألف المرضى، والمستشفى، وكوادرها المبتسمة دائماً. الممرضات كن يقبلن عليه وعلى عوّاده بالجملة المكررة ذاتها: "ما أكثر شعبيتك هذا اليوم!" ويكترث، ملتفتاً الى الآخرين، وكأنه يوزع عليهم بعينيه المعنى المصاغ بعناية لجملة الممرضة. الآخرون يتسابقون بتوكيد الجملة أو معناها، كل على طريقته. كان تزاحم العواد، وزيارتهم اليومية بالعدد ذاته أمر يحمل أكثر من معنى للشعبية التي كان شريف يتمتع بها حقاً. إذ أن شعبية الذعر الذي يثيره مرض السرطان العضال في قلوب عوّاده تزاحم شعبية شريف بالتأكيد لديهم. كان ازدياد عدد العائدين يُضفي على حالة شريف لوناً كابياً. لا أعرف إذا ما كان شريف قد أحس به مثلما أحسست. أعرف أنه كان كثير الصداقات. يجد في كل مخلوق يلتقيه نافذة تطل على ركن ما نافع في الحياة، التي لم يعرف أماناً فيها. فيعقد معه صفقة علاقة تأخذ ملامح طبيعته الهوائية. وبذا يشغلها بالخير والشر. فصوته في الخطاب المباشر، أو عبر الهاتف، لا يفارق ذاكرة العارفين به. لأنه صوت لا يمكن أن يكشف عما وراءه. فهو ليس وسيلة إيصال، بل غاية تمرح بها الأهواء. صوت استعاري إن صح التعبير. تغيب عنه الغاية بفعل هيمنة المتعة التي تمليها الفانتازيا. ما من كائن مقرب إلا وله اسم بديل، يبتدعه شريف بفعل دافع داخلي. فـ"الشرّة"، و"المرأة الحديدية"، و"دار المُدى"، و"صديقي الذي لا يُمل"... كانت ألقاباً موزعة على أصدقائه.

أعرف أنه كثير الصداقات ولكن كثرة الصداقات لا تكفل كل هذا الحشد اليومي المتكرر من الزوار. الأمر لا يعدو كون هؤلاء جميعاً على

قدر من الاحساس بأن شريف على وشك الشروع في الدخول في نفق لن يترك لهم منه غير ظلال شبح سيتوزّعه الحضور والغياب بينهم، بصورة دائمة. هذا ما سيحدث بالفعل. كنت أشعر أن شريف لن يغيب بيسر عن الجميع. فالمرشح للنسيان هو إما أن يكون إنساناً عميق الوقع والحضور، فيصير كمن يتكفّل موته الخاص، أو يكون عابراً لا وقع له. شريف يتمتع بخصيصة لا تنتسب لهذا ولا لذاك. فهو خبط عشواء. ريح صاخبة في الظاهر، ولكن بهدأة مرتابة في الداخل. اندفاعة قلبية عميقة الارتجاف بفعل الحذر. ابتسامة دامعة. تهريج مُفلسف في الخفاء. تحرش أهوج بفعل رغبة بالشعور بالأمان، وكأنه بذلك يتعمد اختبار الحياة والآخرين. ضعف إنساني لا حرمة له في زمن الجبهات والمقاتلين. لذة شهوانية مقموعة نمت قسراً في غير مكانها، في المعدة ربما. حيوية تدور على نفسها في مدن الجادات السالكة. لقد كان يشغل بهذه التركيبة كل من يلتقيه. لقاءاته لا تتوقف، وكذلك اتصالاته الهاتفية. حتى ليبدو بالنسبة لنا، نحن أصدقاءه، مثل شاغل الحياة الذي لا يهدأ حولنا. وها هو يرقد أعجمَ على حافة السرير المطل على الهاوية. فمن لا يطمع برؤية المشهد؟

نتوافد متزاحمين. الوجوه خالية من أي توقعات. من أي تساؤلات عن أخبار طبية جديدة. وجوه ساهمة، متحاشية ما استطاعت كلّ تساؤل حول علّة الأوجاع والتقيؤات، والشحوب والهزال المتضاعفين، وعدم القدرة على الأكل والشرب. هذا التحاشي، وتجنب المساس بالجرح، يحرج الجميع، ويجعلهم كائنات ثانوية على الهامش، تلعب أدوار كومبارس على المسرح، في مسرحية من بطل واحد لا غير. دورهم يملأ الفراغات التي يتركها ظل البطل أحياناً. بطل النهاية الوشيكة. هذه الفراغات تنوجد بفعل السهو. يأتي الكومبارس ويتزاحم فيها، ميالين الى مزيد من تهميش وجودهم. حتى أنهم،

بفعل الشعور العميق بهامشيتهم يحاولون إضفاء لمسات ذات معنى لحضورهم الهش، المجرد من أي معنى، بفعل الحضور الطاغي لبطل الموت المقبل. يحاولون إضفاء لمسات حكيمة فوق خشبة مسرح لا مجال للحكمة فيها. يعطون لأنفسهم دور المراقب، العارف، المجتهد في استخلاص زبدة للأحداث. البطل غاف، ساهٍ عن الجميع. يحدّق عميقاً في الهوّةِ، التي لم تكشف مفاتنها لأحد غيره. يعلو عليهم، ولا وقت لديه يصرفه في هشاشة وجودهم المُفْرَغ تماماً من العمق. إنه غافل، لا متواضع. أما هم فعارفون ومكابرون، بفعل الفزع. إنه لا مبالٍ، وهم مبالون. يفزع أحدهم الآخر ليشد من أزره، في هذا الوجود الذي بدأ يتهاوى على حين غرة.

كنت أحدهم، بل لعلي كنت أحرصهم على لعب دور الكومبارس في هذه الكوميديا الإنسانية. لأني لم أكن عارياً تماماً من ثياب البطل في مسرحية النهاية الوشيكة. كان فزعي كفزعهم، مضافاً اليه خبرة المستشفى اللصيقة بروحي وجسدي. خبرة الوقوف في الإطلالة الصامتة على الأبدية. في لحظات كهذه تفيض لديّ مشاعر الرثاء لهم، كمطارَدين من قوى أمن مجهولة الهوية. أما هو، المستسلم على السرير الأبيض، فمعتقل داخل زنزانة، ينتظر ولكن دون لهاث وتسارع نبض، ووسواس يلتصق كالبعوض على الجبين المحموم.

٣٠.

مستشفى Ealing تطل من رابية على الشارع الرئيسي، تفصلهما مساحة رحبة للحدائق ووقوف السيارات. أمام واجهة المدخل أكثر من موقف لباصات النقل العام. والتطلع للأفق من مدخل المستشفى يُشعر الزائر أنه في منأى عن مشاغل العالم. ولأن المبنى المجاور، وهو من بقايا المستشفى القديم، صار دار رعاية طبية للمرضى العقليين، فأنت تراهم في أكثر من زاوية، منفردين بأنفسهم، ساهمين في عمق فراغها المحير. هذا الحضور لغياب العقل يعمق لدى الزائر شعوره بذلك المنأى عن مشاغل العالم حقاً.

فسحة المدخل الخارجية هذه لم تكن تخلو، طيلة النهار، من زائري شريف الربيعي. هناك يلتقي القادمون الجدد بالذين سبقوهم، ممن احتاج أن يدخن سيجارة، أو يأخذ نفساً أكثر نقاهة من هواء الردهات المفعم باليود ورائحة المخدر. يتبادلون الرأي بشأن الأخبار غير المعلنة في الداخل (داخل المستشفى). ما من خلاف على شيء. حتى معرفة شريف الخرساء بما حدث له متفق عليها. ثم لا يجدون مشقة في الانتقال الى الأخبار المعلنة في الداخل (داخل العراق هذه المرة). هذه الأخبار مصدر اجتهادات لا تنتهي في التأويل. على ان الأصدقاء العراقيين، الذين جمع شملهم رحيل شريف الوشيك، أوهى وأضعف من أن بشتت شملهم خلاف الاجتهادات السياسية بشأن مصير وطنهم، أو

بشأن سطوة الدكتاتور التي بدت خالدة. الضعف الذي خلفه الإحباط واليأس لم يدع معنى لخلاف الاجتهادات. فالحقائب التي أعدها الجميع استعداداً للعودة المأمولة، بعد حرب الخليج الثانية، ووعود الرئيس الأمريكي بوش، ودخان الانتفاضة، أعيدت مفرغة الى أماكنها فوق خزانات الملابس. ما من شيء يستحق عناء الخلاف.

في الطابق الخامس من مستشفى Ealing، وفي الردهة التي تسع ستة مرضى، كان شريف على سريره قد توقف منذ أيام عن التقيؤ. كما توقفت لديه أية قدرة على الأكل. استبدلت الصحون والملاعق ورائحة الطعام بأكياس المغذي البلاستيكية المدلاة على مشجب، وبالأنابيب المنحدرة بتسارع الى ما تحت الشراشف والأردية حيث جسده، وبرائحة اليود. السرير أصبح أشبه بقاعدة مسرح لعرض البطل الواحد. أصبحنا نحن بالمقابل متفرجين. ذبلت قليلاً النظرات الحيرى، والحركات المتوترة والمجهدة. حلت محلها النظرات الفارغة، والحركات التي لا هدف لها، إلا هدف تمرير الوقت. أصبح حضور شريف بصورة ما غائماً. حتى صار أصحاب الدعابة والمستجيبون لها أكثر حرية. على أن أحدهم قد يستعين بطرائف شريف المعهودة وهي كثيرة، من أجل مزيد من الدعابة. أراقبه في الخفاء فأجده أحيانا ينفصل عن شخصه ليأخذ دور المراقب، المحدق غير المصدق، الفزع. ولكنه سرعان ما يتحد فيه ويستسلم. ما من سبيل الى تبديد الوقت على قصره. معانقة لحظة اليأس، والذوبان في الصرخة حتى يتلاشى الصوت، هو آخر ملاذ الكائن الذي نضب فيه ماء الحياة.

في يوم تال انتبهت الى أنبوب جديد يصل بين مبوله وبين كيس بلاستيكي معلق على حافة سريره، التحق به في اليوم التالي أنبوب يصل بين فتحتي أنفه وبين كيس بلاستيكي جديد. كلا الكيسين يحتوي على سائل مشوب بخيوط حمرة دموية. تقارير الأطباء التي تصلنا مقتضبة

تؤكد اتساع رقعة السرطان، واستحالة المعالجة. البارحة (١/٩/١٩٩٧) انتبهت لأكثر من أنبوب هذه المرة يصل الرقبة بجهاز مركون الى جانب السرير. وشريف أكثر نحافة وإجهاداً، مستلق بعينين ذابلتين وقد بلل العرق جبهته. جلست الى جانبه بعد أن عرفت ان عملية عاجلة أجريت له من الرقبة لدس أنبوب تغذية الى المعدة. هذه العملية أجريت له وهو نصف مخدر، ممهيداً لعملية كبرى تجري يوم الجمعة القادم، لاستئصال المعدة برمتها. وهذا يعني أن التغذية وصرف الافرازات ستتم بوسائل من خارج الجسم. هذه أول خطوة جدية تُتخذ، ولكن بأي اتجاه؟!

أحيانا، لتلافي وطأة الوقت، كنت أفضل الجلوس في ردهة الانتظار. وهناك ما من أحد يستطيع ان يضع الفنان الكحولي (ف)، الذي دخل الردهة مخموراً كالعادة، في شبكة التفاصيل الواقعية لما حدث وجرى على امتداد الأيام السابقة. كان الفنان (ف)، شأن كل كحولي، قد شاء أن يضع الواقع الأرضي على شاشة تشبه شاشات السينما، ليجلس هو من داخل الواقع الخيالي متفرجاً. صور الحياة الواقعية تبدو لعينيه، بالأسود والأبيض، مملة. فتهيب به أن يلبس قناعَ المندهش المتعجب. ضرب من تمثيل دور العاطفي، الذي سيتلبسه دون عناء. على أن عواطفه ستخرج من مصادر داخلية، لا شأن لها بما يحدث خارج روحه. ولذلك بدا لي ممثلاً على درجة من الإثارة. مد لي يده بانحناءة مودة، هامساً على مقربة من وجهي، بالرغم من أن الردهة تكاد تكون فارغة، إذا ما كان شريف الربيعي، شريف الذي نعرفه سوية، على وشك الرحيل. هكذا دون مقدمات؟! ثم استقام بعناء وعلى ملامحه بقي السؤال أكثر من جدي. قلت له: هذا ما توصلنا اليه على ما يبدو. استرح. كنت حذراً من أن يفلت الى ردهة المرضى المكتظة، فيزداد اهتياجاً بفعل وفرة من يعرف هناك، ويغالي في دور الممثل. جلس الى جانبي، وهو لم يغادر تحديقته المندهشة في وجهي. ولكي يؤلب نفسه على مزيد من الألم،

أعاد السؤال: شريف يموت؟ تماماً كمن لم يجرؤ على قول: أنا أموت؟ ثم انخرط بعد دقائق في بكاء هادئ. حين توقف فجأة، ورفع وجهه إلي كانت عاطفته القلبية منصرفة الي هذه المرة. قال أنه يُكبرني، ويكن لي احتراماً خاصاً. يجب أن تعتني بصحتك. أعرف أن قلبك الرقيق لا يحتمل كل الذي يحدث من حولنا. أُكبر عقلك أيضاً. ثم مدّ يده، وبراحته الحارة صار يهدهد ظهري المنحني قليلاً. كان عاطفياً تماماً. ولأنه خشي من داخل فورة العاطفة هذه من أن أفسر كلامه على أنه ضعف، أو تهاون بحق الفنان فيه، أو من أن يأخذني الغرور فأعامله بتعالٍ، قفز وترك مسافة بينه وبيني، يحدق بي بوجه لا يخلو من خيط تهكّم، أو خيط احتقار بالأحرى. وتحول في ثوان الى مشروع عداء جاهز للانقضاض. ابتسمت في وجهه، ووجدت من الضروري أن أتعامل مع حالته الجديدة واقفاً. الأمر الذي هوّن عليه اكتراثه بالمتوقع من عواطفي. تركني وتهادى يغادر الردهة، التي كانت لحسن الحظ فارغة.

. ٤ .

تم إجراء العملية في ظهيرة الخميس لا الجمعة. ذهبت بعد الظهر لاستطلاع النتائج. كان هناك أمل ما معلق على مفاجأة عمياء. قد يخرج طبيب الجراحة ليقول أن نصف المعدة صالح للحياة. وأن استئصال النصف الثاني قد تم بنجاح. وأن الرجل سيعيش شأنك وشأني. ولكن الجراح خرج من غرفة العمليات و لم يستطع أحد منا اللحاق به ليستلم الخبر اليقين. كنا في غرفة الانتظار خارج الردهة التي يستسلم فيها شريف فاقد الوعي تحت تأثير المخدر. غادرت الساعة الثامنة، وبقي احمد المهنا وهاشم شفيق وليلي بأمل اللقاء بالجراح. في اليوم التالي اتصلت صباحاً بأحمد. قال لي إنه التقى الجراح ليلة البارحة و لم يعطه أملاً. قال له إنه اقتطع ما استطاع من المعدة المعطوبة، وترك فتحة لما تبقى منها تكفي لتسرب السوائل. قال له إن البنكرياس متأثر بخيوط السرطان، وإن قوة الحياة ستتسرب من الرجل بأسرع مما كان يعتقد. قد لا تمتد لأكثر من بضعة أشهر.

استعدت أنفاس صديقي المتسارعة قبل إجراء العملية بيوم. استعدت تقطيب حاجبيه، واحتجاج جبهته المعروقة، فلم أر أثراً للشحوب والصفرة. بل تأملت مقدار الإجهاد الذي أمسك بخناق كل خلية من خلايا جسده. هذا الرجل الذي بدأ يغادر مثل سفينة شراعية تترك الميناء منفردة دون أناشيد ومواكب، على سطح بحر أخرس شديد

الهدوء، حتى ليبدو غير مبال، تستغرقه نسمات جزعة باردة، وبضعة طيور سوداء، تُذهل الأفق بصرخات مفاجئة، حادة، لا تنتمي الى عالم الأصوات. هذا الرجل تمتد معرفتي به قرابة ثلاثين عاما أو تزيد. بدأت في منطقتي كرادة مريم في النصف الثاني من العقد الستيني، وتواصلت في بيروت، ثم انقطعت بعد مغادرتي بيروت الى بغداد عام ١٩٧٢. ولم تتصل من جديد إلا يوم وصوله لندن لاجئا عام ١٩٩٢.

"في هذه المرحلة (مرحلة أواسط العقد الستيني) صرت مع الصفوة الملازمة نتجنب الأفق المحلي الضيق في "العباسية"، ونذهب الى "مقهى فاضل" في قلب كرادة مريم. كانت المقهى في الصيف حديقة حقيقية. يضاهي جمالها أبهة مبنى السفارة الايرانية المجاور. هناك تعرفت على شريف الربيعي، الشاعر الوجودي الذي كان يسكن على مقربة من المقهى، في منطقة الصرائف تحت الطاسة البيضاء لخزان المياه. كان له في مجمع تجاري مقابل للسفارة الايرانية دكان عطارة على وشك إغلاقه. سمعته الوجودية التي سبقته إلي كانت مفتاح تعارفنا. في كرادة مريم كانت صفة وجودي الدارجة على لسان العامة تُلصق بالشخص المعني بالكتاب والقراءة دون انتماء واضح. وإلا فهو شيوعي، أو بعثي، أو إسلامي. كنت أنا الآخر وجودياً، ولكن على خلاف شريف، لم يكن لي ماضٍ عقائدي. فقد كان شريف شيوعياً شأن معظم ابناء جيله. إلا أنه غادر هذه الجادة، قبل لقائي به، فأصبح مثل سارتر، الذي جاءنا مترجَماً من دار الآداب ببيروت، يسارياً مؤمناً بقداسة الحرية الفردية. وبفعل الذعر الدفين من حياة لا ضمان فيها(من انتمائه الطبقي، ومن تجربة انقلاب البعث الدموية، ومن طبيعة تطلعه لحياة ممنوعة...) انتسب شريف الى العبث. صارت وجوديته ذات مذاق ساخر. هذا الجمع الفريد كان فائقاً في إثارته، خاصة لشبان الطبقة الوسطى في كرادة مريم. انتماؤهم القومي والبعثي لم يمنعهم من الإحساس بالمذاق الحلو

لهذا الشاعر، الذي خرج من طبقة معدمة، ومن تيار اليسار الشيوعي، ليكون مهرجاً في مفترق طرق الحيرات، بروح غاية في عدميتها وانتهاكها للمنطق. كنا نردد معه آنذاك قصيدته التي ينفرد فيها البيتان:

" رأس الشاعر/ طبقٌ طائر".

"كان ابناء هذا الجيل الستيني مولعين بسارتر وكامو، وكل ما يرد من الغرب، عبر منخل بيروت. هذه الموجة دفعتهم قليلاً خارج تيار الحياة اليومية. رفعتهم قليلاً عن الأرض. وبإهاب المثقف المحترف صار واحدهم يعيش حياة لا تختلف عن الوهم، إلا بخلوها التام من متعة الوهم. حياة أفكار مترجمة، محاصرة من قبل الحياة.

"عدمية شريف الربيعي وتجرده من أي يقين جعلاه سريع البديهة في إلقاء كل ما يقع بين يديه في حوض "المجازات الساخرة"، في حوض الضحك المجان. كل شيء مُعرض لأن يكون هدفاً لانتهاك مخيلته. الأفكار، الزمان، المكان. إلا أنه كان سهل المكسر، واهي البنيان، وعرضة للانتهاك أيضاً. وهذا الضعف وحده جعل مجازاته الساخرة ذات مغزى ومعنى. وأفرده عن أبناء جيله بالخروج من إهاب المثقف المحترف، والخلاص من شرك الأفكار المترجمة، والبقاء في تيار الحياة العامة. ولكن المؤسف أن تحقيق توازن دائم في هذه المعادلة (الثقافة ـــ الحياة)، في الظرف الستيني، وفي الظرف العربي عامةً، يبدو صعب المنال، مما دفع شريف كثيراً عن الثقافة الجدية، عن تعميق مجرى تجربته الشعرية، تماماً كما دفع إهاب المثقف المحترف، في الطرف المقابل، كثيرين عن جادة الحياة. أو عن ربط الأفكار بالحياة، على أقل تقدير.

"كان جسر الجمهورية أيسر واقصر الطرق الموصلة بين كياني الثقافي المحلي وبين النشاط الثقافي الستيني العام. عبرت الجسر حينها لأكتشف أن شريف الربيعي أكثر نشاطاً وحيوية وانتهاكاً للمنطق في

النشاط الثقافي الستيني المتمركز في "مقهى السمر" منه في "مقهى فاضل" المحلية. كان صوته الشعري يرتفع بفعل ارتفاع حيويته داخل أروقة الصحافة، وفوق تراب مقهى "السمر". قصيدته قصيرة، حادة الحواف، لا تخلو من مسحة أدونيسية، جاءتنا موجتها آنذاك طاغية مع ديوان "أغاني مهيار الدمشقي"، وكانت تقفز أبياتها مثل شظايا لتثبت في الذاكرة:

"هاربٌ من ملكوت الافتعالْ
موصدٌ دون سؤالي لغةٌ،
يا لسان اللغة الأخرى تعالْ"

"لم يمتْ عهدُ يهوذا
لم يزلْ يفتحُ للأحقاد بابْ"

"يا شاعراً فضّ غشاءَ اللغة
في ليلةِ العرسِ، وصلى وغابْ"

"كانت قصائدي التي سبقتني الى الجيل الستيني، بالمقارنة مع قصائد شريف أهدأ وأكثر همساً وفردية. الكثير منها نشر في الصحافة المحلية، والقليل في "الآداب" و"شعر". وتم التعارف بيننا، وكان شريف، ابن محلتي كرادة مريم، شخصية كوسموبوليتية لا تنتسب لمحلة. كان ابن الجيل الستيني عن حق، الذي لم يفصل نشاطه الإبداعي عن نشاطه الصحافي. هذه الظاهرة بدأت مع نشأة هذا الجيل، وسادت

الأجيال التالية كلها، خاصة بعد أن أممت الدولة البعثية الصحافة كلها. وبسبب طبيعته هذه سهل الاتفاق بيني وبينه على إصدار مجموعة شعرية مشتركة بعنوان "صوتان من المدينة". وجمعنا القصائد في دفتر أنيق، كتبتها بخط يدي، ورحنا نجوب أروقة مطابع الصحف بحثاً عن فرصة أرخص وأيسر لطباعتها وتوزيعها. وكانت موجة نشر المجموعات الأولى الشعرية والقصصية للجيل الستيني على وشك أن تبدأ.

"لم يتحقق المشروع لسبب لمْ أعدْ أذكره. كان شريف يكبرني عمراً بقليل، ويسبقني سمعةً. ولعلّ أحداً أبطل همته في مشروع نشر قصائده مع شاعر ما زال يجلس على حافة الستينيين، ولم يسهم في حفر مجراهم كما فعل شريف آنذاك.

"أخذت نصف الدفتر وأضفت له بقية القصائد، ونشرته تحت عنوان "حيث تبدأ الأشياء"، في حين أهمل شريف مجموعته حتى يوم مماته. ولم يخرج بعضها الى النور إلا في "المختارات الشعرية" التي صدرت في أواسط ٢٠٠٢. المدهش أن شريف ظل محتفظاً بنصف الدفتر ذاك، بخط يدي، حتى سنوات إقامته الأخيرة في لندن.

"إن "رأس الشاعر طبقٌ طائر" لم تظل قاعدة سائدة في حياة وشعر شريف. فهذه تفترض هوساً شعرياً وثقافياً كان يفتقده. على الصعيد العملي شغله هوس النشاط السياسي والاعلامي داخل المنظمات الفلسطينية، منذ هجرتنا الجماعية الى بيروت، بعد عودة حزب البعث الى السلطة عام ١٩٦٨. صحيح أن شريف ظل يكتب قصائد أطول نفساً من قصائد مرحلته الستينية، وأهدأ طبقة صوتية، وأكثر محاولة للخروج من ضوابط الايقاع، وإيجاد بديل في واحة موسيقية بين الوزن والنثر، إلا أن نشاطه الشعري، حتى على الصعيد النفسي والروحي، ظل خافياً، مواربا،ً وحيياً. وهذا الافتقاد للجدية لم يكن بالتأكيد لصالحه.

"إلا أن "رأس الشاعر طبقٌ طائر"، حتى في مرحلتها الأولى لم تخلُ من تماس مع الواقع. فهو حين يقول في ١٩٦٦:"ضحكتي تورق في حقل الخرافة"، إنما يقصد ضحكته الساخرة الجارحة في حقل الحياة العراقية الكابية. وحين يكمل:"وأنا فوق حبال السخرية/لاعب أسقط في رعب المسافة"، يفضح طابع السخرية، التي يلعب هو على حبالها. ثم يرى نفسه تسقط في رعب الهاوية(تعرض الإنسان للانتهاك واللا ضمان وانعدام الأمان).

"انقطعت السبلُ بيني وبين شريف، "وجوديّ" أيام الشباب الأول، منذ سافرنا، في منفانا الأول، الى بيروت. و لم نلتقِ إلا عند مجيئه لندن لاجئاً شأن الكثيرين عام ١٩٩٢. نشاطه الاجتماعي، ورغبته في أن يكون بين أصدقاء على الدوام، وصحته وعافيته الظاهرتان، لم تشكل مناعة كافية ضد لا معقولية الموت. فقد فاجأنا سرطانه الذي انتشر من المعدة وجعلنا كيانات خرساء. بقي في مستشفى إيلنغ المحلية أياماً معدودة، وكأن مغادرته لنا في ليل ١٩٩٧/٩/١٠ مزحةٌ من مزح روحه الساخرة. الى اليوم وفي كل مرة أزور فيها مقهانا القديمة في مجمع Watergrate في إيلنغ، أرى من بعيد رأس شريف بالشعر المفتول الكثيف الأبيض، هادئاً على غير عادته، ولا يكثر من التلفت." (النص السابق بين أقواس مُقتطف من كتابي "العودة إلى غاردينيا" دار المدى، ٢٠٠٤)

.٥.

في الأحد الماضي (١٩٩٧/٩/١) فاجأ الملايين موتُ دايانا أميرة ويلز. لم يكن الخبر تعزية لشريف ولا لأحد منا. ها هي أميرة بعز ثرائها وشبابها تموت بصدفة عمياء. من يتوقع أن يمسك شرك العنكبوت بكل هذه الصحة والعز والشباب؟ و لم لا يموت رجل بائس، محزون، وحيد، ومنفي مثل شريف؟

اليوم السبت (١٩٩٧/٩/٦) كان يوم تشييع دايانا. ملايين المشيعين، ومئات الملايين في القارات السبع يرقبون، بمشاعر وداع حميمة، جنازة الأميرة الشابة وهي تتجه الى المثوى الأخير. فلمَ لا نتّعظ ويتَعظ شريف؟ كان راديو ٣ يسهم بصورة جد ديمقراطية بتعزية الملايين التي تحب دايانا، ولي أنا الذي أحب صديقي. لا فرق! كانت حركات "أداجيو" البطيئة تتلاحق بصورة نبيلة من الراديو الصغير، المستقر في زاوية صغيرة من مطبخ بيت أخي، الذي أقيم فيه مؤقتاً. "أداجيو" من أكثر من عمل أوركسترالي. "أداجيو" السابعة لبيتهوفن. "أداجيو" قلب موتسارت الطفل في "سيرانيد" الهوائيات وفي الخماسيات والرباعيات الوترية. "أداجيو" قلب شوبرت الشائخ وهو بعز الشباب في "الناقصة" والتاسعة، وفي رباعيته "الموت والعذراء". في تساميات باخ، وانحدارات تشايكوفسكي الدامية. على أن مالر لم يكن لينقطع. فلقد استحوذ على كل مناخات الروح الملتاعة لدي من أجل صديقي.

ولدى الملايين من أجل دايانا الشابة. كل نأمة من موسيقى مالر ندبٌ ولحظة تحديق في هوة الموت. كنت أحدق اليوم (السبت ٩/٦، الساعة السابعة مساءً) في وجه شريف، وهو مغمض العينين نصف إغماض. كنت أُحصي عدد الأنابيب التي تصل جسد وروح شريف بالمجهول. أنبوبان في يده اليسرى. أنبوب من فتحة الأنف اليمنى. أنبوب من جانب الرقبة الأيمن. أنبوب من المبول. أنبوب أو اكثر من الجوانب غير المرئية. كان وجهه شاحبا تماماً، لا ينم عن انتباه للمحيط، ولما يجري فيه. أنفاسه متسارعة ما زالت، وعلى حين غرة يحرك رأساً، أو يرفع يداً. كما لو كان الأمر استجابة لوخزة خفية تخز الروح بلا ألم. كان تسارع الحركات والأنفاس بصورة مفاجئة نذير شؤم. هل لأني رأيت الحركات والأنفاس ذاتها في مريض سابق غادر الحياة؟

قلت لشريف: هل تتألم؟ كأنه لا يجرؤ على فتح شفتيه الناشفتين. حركهما ببطء، وحذر، كمن يحفزهما للنطق: لا ألم الآن. ثم بعد فترة صمت: لا تقلق. كان يريد أن يقول: "تطامنتُ حتى جمرها غير لاذعي..." إنه يعرف بيت الشاعر الجواهري كما أعرف. كان يريدني أن أعرف انه لم يعد بين صفوف المرضى، الذي ينتظرون علاجاً، بل دخل نفقاً أوسع أفقاً، وخطا في درب منزّه عن الغرض والغاية، ككلِ درب جليل، مهيب. رفع يده اليسرى، وهو مغمض العينين، قليلاً باتجاهي. أمسكت بها بين أصابعي، وارتخت اليدان على الشرشف الأبيض. كان أخي صادق واقفاً ورائي، مستنداً بظهره على شباك يطل على خرائب. على أشجار أمست أشباحاً. على عالم أمسى ليلاً محيطاً.

- ٦ -

الوقت يتباطأ، في حين تتسارع أنفاس شريف، ويتسارع هزال جسده. الأصدقاء يتقاسمون مهمات الإقامة والسهر عليه. مر يوم السبت والأحد بصورة جد ثقيلة. لأن يومي السبت والأحد هما من فصيلة الأيام التي يحفل فيها الأحياء بفعل حضور الموتى. السبت والأحد هما الخندق الذي يفصل دورة الأسبوع، تماماً كما يفصل النوم دورة اليوم، ويفتح إطلالة على عالم الغيب. في يوم الاثنين ذهبت لأواصل صلاة السبت والأحد السابقة، لأجلس وأتأمل ذلك المستسلم لحضور غير حضوري. لأتأمل العينين المغمضتين على عالم آخر. لأتأمل التقطيب الذي لا يفارق جبين الصديق الغافي. في يوم الاثنين لم أجد، حين دخلت الردهة، شريفاً على فراشه. كانت تستقر عليه شابة فتية مع عائديها. انتبهوا الي جميعاً. عرفوا مقدار خيبة أملي المشوبة بالريبة والخوف. سرعان ما قدّرت أن شريف نقل الى مكان آخر. لأن أحداً لم يخبرني بموته المتوقع. لا أعرف كيف اهتديت الى غرفة خاصة صغيرة مجاورة نُقل شريف اليها. دفعت اليها بهاجس مجهول لاشك أن خيوطاً ما تربطه بعالم الموتى السري. وكأنني عرفت ان لدى الأحياء جميعاً أثراً من تلك الخيوط. لدى كل حي من هؤلاء الأحياء، منا نحن، طرف خيط من تلك الخيوط! دخلت الغرفة فوجدت فيها أكثر من صديق. جلست بصمت على كرسي بينهم، وغرقت في التحديق المتأمل ذاته.

كانت أنفاسه تتسارع ولكن بصورة غير مقلقة. عيناه مغمضتان بصورة تبدو أقل إجهاداً منهما مفتوحتين. وبشرته سمراء معروقة. وقف صمويل ومسح بالورق الناعم جبينه واستقامة أنفه، ووجنتيه، وفمه المفتوح. أمسك بطرف كتفه العاري بصورة غير إرادية، ثم عاد الى مكانه، يواصل تأمله فيه. يتأمله مبتسماً ابتسامة من يقيم وإياه في مملكة لا شأن لها بمشاعر الانسان الزائلة. رأيت ابتسامته تتحول الى تنهدات. كنت أحاول محاصرة شفافية ابتسامته بتأملي. أحاول أن أقتنص منها ما كان يبدو لي محبة قلبية. كنت أحاول ذلك جاهداً، ولكن بعضاً من عناصر التأمل لم تكن تستسلم لي بيسر، فأسعفتني الدموع. لم أجرؤ على البكاء أمام أحد. قفزت، وقد اختفى صوتي تماماً، وخرجت من الغرفة. شعرت أن قبضة تمسك بي داخل الصدر. قبضة احتجاج على تمنعي. قرب شباك خارج الردهات وقفت. لحقت بي كفاية، عاتبة على قراري بالمجيء في ساعات حرجة كهذه. كان يجب ان أكون هنا، قلت لها، ثم رجعنا الى الغرفة المفردة. كان دفتره الصغير، الذي صحبه منذ دخوله المستشفى، خالياً على وجه التقريب. صفحتان أو ثلاث كُتبت وكأنها مشروع قصيدة حاولها شريف فاستعصت عليه:

"لماذا يا صديقي عفطت على شارب الصدفة،
مقنعاً قناعتك بمكان أفضل.
لماذا هكذا منحت المكان الجديد شارة الخلاص،
ضاماً في عمق أعماق الروح ما تضمره نحو النزوح؟
ولماذا، هكذا أيضاً، تركت لصدأ الخراب
كاميرا الروح، التي لم تكن تفارق وعيك بالكارثة؟
لماذا تركت هكذا الخراب يتخبط في آلام تفاصيله العراقية،

دون رقابة العين الذكية،
خراب اللحظات التي مازالت شاخصة
على زهرة الفؤاد، مثل إرث مسموم،
خراب الطفولة، حيث البراءة شعار القتلة وحدهم،
خراب البلاد، تحاول أن تجد عنواناً لوصف ما حدث..."

ولكن القصيدة سرعان ما تستسلم لنثر مقالة عن المعارضة العراقية. ابتسمت لشريف، وقلبت الورقة. وجدت عنواناً أعلاها: "خصائص الضعف الانساني عند الجواهري". ثم تحتها:

" ١- لقد أسرى بي الأجلُ..
٢- يداي أكانت يد الحادثات..
٣- ماذا صنعتُ بنفسي قد أحقتُ بها ما لم يُحقه بروما عسفُ نيرون.."

هل كان مشروع مقالة لجريدة الحياة؟ التفت مبتسماً الى وجه الرجل المستسلم لفعل المخدر. على صفحة الغلاف الداخلية وجدت قائمة بأسماء أصدقائه الزائرين، مرقمة ومكتوبة بصورة متأنية:

١"- جمال - دائم
٢- أحمد - بين حين وآخر (حُذفت "حين" واستبدلت بـ "يوم")
٣- هاشم - بين حين وآخر

٤- فوزي

٥- صادق طعمة

٦- صادق الصائغ

٧- زهير الجزائري.."

ثم تتوالى الأسماء على امتداد عمودين في صفحة الغلاف، يكملها شريف على صفحة الغلاف الأخير، حتى يصل رقم العائدين الى ٨٨، آخرهم: "نبيل ابن أخو فوزي". كُتب الأخير بقلم جاف يبدو أنه استنفد حبره بين يديه فلا يكاد يبين. والغريب أن رغبة شريف بمزيد من العائدين جعلته يكتب تسلسل وتواصل الأرقام وحدها، وكأنها بانتظار عائدين جدد:

"٨٩-

٩٠- ... "

غرق في غفوة المخدر قبل أن يستكمل عدد محبيه. قبل أن يحصي عدد معانقيه ليدفأ.

.٧.

هذه الغرفة التي نُقل اليها شريف معدة، بصورة لا سبيل الى الشك فيها، للساعات الأخيرة. لقد انتزعت من جسده كل الأنابيب التي أُضيفت لإسعافه، باستثناء أنابيب التغذية والتبول. لقد تُرك لمصيره بعد أن قرر الأطباء أن لا سبيل الى المعالجة، أية معالجة. كل محاولات الدفاع عنه توقفت. كان هناك قرار لنقله الى مبنى آخر مُعد للحالات الميؤوس منها. هناك يخضع لرعاية من نوع مختلف، تقتصر على تخفيف الألم، وتيسير السبيل للموت. ولكن تسارع أنفاس شريف جعلتهم يعدلوا عن الخطة. كانت خديجة، التي سعى شريف لتسهيل مهمة سفرها من المغرب الى لندن، تجلس في كرسي ضخم جعل من حجمها أصغر من حجم الانسان الطبيعي. صامتة وتحدق فيه. تلتفت الي بين حين وآخر لتقول بابتسامة حلوة: "كم يبدو جميلاً. هيئته الآن مناسبة لكثير من الصور الفوتوغرافية." انا أوافقها. قلت لها إن الفنان التشكيلي فيصل جاء البارحة، ووضع له عدة تخطيطات. أنا الآخر وضعت له تخطيطاً سريعاً على غلاف كتاب كنت أحمله. وسأحاول تنفيذه في البيت. كريم عبد عند النافذة ينظر الى وجه شريف غير مصدق. هاشم شفيق يتقاسم كرسياً مع أحمد المهنا. يليه هاشم العقابي مع زوجته. صادق الصائغ يأتي فيجلس في كرسي على مقربة من رأس شريف. حركة يقظة صغيرة تنتاب المريض. يفتح عيناً تشبه غديراً راكداً. ينحني عليه صادق انحناءة

مقصودة، ويناغيه بصوت مرتفع: "أبو الشرف، فدوة لعيونك"، ثم يقبله على جبينه. لم يستطع أن يعاود مناغاته. فقد ثقلت حنجرته. ابتل المشهد جميعاً. كما لو كان عبر زجاجة أغرقتها قطرات المطر.

غادرت المستشفى حوالى الساعة العاشرة والنصف. خديجة وصمويل سيسهران معه هذه الليلة.

.٨.

كم يبدو هذا المسجى اليومَ مُحتضَناً!

عاش شريف كل حياته يغذ السير في طريق موحشة. ما من ثمرة تدخل كيانه، أو تطلع من ذلك الكيان. في امتداد الصحراء الرملية الجافة له فاعليتان لهما طعم الثمار: زواجه الفاشل، وابنه غيث. في غرفة الاستراحة والتدخين المجاورة لردهة شريف قال أمجد ناصر ذلك. أنا وافقته تماماً. كان شريف يقول لي "إنه لم يعش لحظة سعادة حقيقية أو غير حقيقية واحدة في حياته." أحسب أنه كان يعني، في وقتها، حياته الزوجية. ولكن زواجه كان فعلا إرادياً، على كل حال. أشرك فيه كياناً آخر في حياته الداخلية الخاصة. وعلى الرغم من أن هذا الزواج لم يتحقق كمشاركة، و لم ينته إلا الى الفشل، إلا أن شريف ظل متشبثاً بظلاله. بشيء من الخيوط التي تربطه بالمؤسسة الاجتماعية. شيء يجعله داخل محيط العائلة، حتى لو كان هذا المحيط مجرد وهم. كان لا يحتمل امرأة. ولكنه يريد أن ينتسب بالقوة لدائرة خاصة به، تكون الزوجة طرفاً فيها، والابن الطرف الثالث. ضرب من التمثيل على خشبة مسرح مهجور. كان يطمع برائحة عائلة مستحيلة التحقق، تجعله قادراً، داخلها، على الانفراد بنفسه دون فزع، وإحساس في اللامعنى. ولذلك كان يرغب، حين يزوره ابنه غيث زيارته الاسبوعية، أن ينقطع عن الناس. أن لا يقبل اليه صديق أو يذهب لصديق، كما

هي عادته اليومية. كان ينفرد بابنه، أو بصورة أكثر دقة، أن ينفردا، هما الاثنان، بمناخ بيت عائلي متوهَم. كان شريف يشعر بوحدة دفينة يغطيها، دائماً، بثياب الهارب، أو ثياب المهرج. ثياب الهارب الى فاعلية عابثة لا تتوقف. وثياب المهرج في كلام عابث لا يتوقف. ولكن لا زيارة الابن، ولا الانقطاع له كانا يستران عورة الرجل، عورة معرفته بالحقيقة العميقة الجروح: إنه وحده. وإن كل ما يحدث له ضرب من الافتعال يعمق الغصة في قلبه. ولأنه اعتاد لزمن طويل أن لا يتكاشف مع الحقيقة، أية حقيقة، فقد بقي يربط وجوده سراً، من حيث لا يرى أحد ، ولا حتى هو نفسه، في المرأة التي كانت يوماً ما زوجته.

على سرير مرضه، وفي اللحظات التي تتواثب في الفسحة الحرة بين الوعي واللاوعي، كانت تأتلق فكرة ارتباطه ذاك في المرأة التي كانت يوماً ما زوجة له. كان يعلن اسمها من بين شفتين آمرتين. كان يقفز، بشجاعة يستمدها من يأس الموتى، مسافة أكثر من عقد من الزمان، ليأمر زوجته أن تحضر. يحدثها، كما لو كان يُكمل حديثاً بدأه البارحة، عن نفسها. عن الزواج، زواجها، من رجل آخر. عن كل ما يحب أن يراه أسطورة لا حقيقة لها. والمرأة متورطة في الذي يقحمها به. إنها لم تكن داخل دائرته يوماً. ولكنه يريد أن ينتسب لدائرة هي فيها. دائرة العائلة التي تذكره بالدفء المفتقد.

حين قرر المجيء لاجئاً الى لندن، قال جميع من يعرفه في جزيرة قبرص أنه اختار لندن لأن تلك المرأة فيها. يلاحقها كالظل. هل كان شريف يجاهد أن يشبع حاجته للحب، حب المرأة؟ لا أعتقد. كان يجاهد أن يشبع حاجة أن يكون منتمياً. أن يكون داخل سياق المؤسسة الاجتماعية، متمثلة في العائلة. كان منهكاً من سرطان الوحدة ينهك جسده. كان وحيداً خارج إطار عائلته، منذ الشباب الأول. عاش خارج الجدران. استمرأ ذلك وفُتن به، وقطع فيه شوطاً طويلاً، ثم اكتشف، حين دب به البرد، أن لا سبيل الى العودة.

كان ظامئ الجسد، ظامئ الروح للحب. ولكن لا مجال لحب يشبع الجسد والروح على هذه الطريق المتسارعة. كان يلتقط فتناً ولذاذات، مثل فُتات على قارعة الطريق. والتقاط الفتات يورث الخشية والفزع من العيون المراقبة. خاصة في كيان كائن مشرد، عن غير رضى أو قناعة. ولذلك دفعته الخشية والفزع الى مزيد من الإسراع ومزيد من الهرب. أصبحت علاقته بالحياة من حوله، كل الحياة، موصولة بخيوط سهلة البتر، سهلة التوتر. تماماً كخيوط العنكبوت. لم تكن علاقته بالحياة، كل الحياة، ملتحمة، تعتمد العطاء والأخذ، بكل ما في حياة السوق من فاعلية. بل كانت علاقة هارب وجل، يطلب السلامة كل ثانية. وما روح السخرية الحادة التي تحاول هتك عذرية الآخر، والتي كثيراً ما تأخذ قناع المهرج، إلا ضرباً من الوقاية.

كان يسعى الى إغواء الجميع للبقاء معه على السطح، سطح الحياة الفردية. يغويهم بالاعتباط وإعطائهم فرصة أن يرو أنفسهم في مرايا مقعرة. جاهداً أن يحول بينهم وبين مغادرة السطح الى الداخل، الى مملكة السر، الفردية بالتأكيد. إنه صديق كثيرين. وبينه وبين كل صديق بوابة سرية سرعان ما تُغلق حين تحين اللحظة المناسبة. أو أن هذه البوابة كُتب لها أن تكون مغلقة دائماً، لم تمنح الأقدار لهذا المخلوق غير الآمن فرصة تحطيمها، بفعل طمأنينة تمنحها الطبيعة بحكم الصدفة.

حسياً، بقي الأكل متعته الوحيدة. ولكنه لم يكن يتعامل مع الطعام طبخاً وأكلاً إلا كمهمة ثقيلة. كان يأكل بطريقة تكاد تكون خاطفة. تبتل شفتاه باللعاب على ذكر أكلة. وكأن شهواته الجسدية الحبيسة قد تحولت الى شهوات فمّية. يسمي الأكل زقّوماً، ويزلط اللقمة دون مضغ. وهو عادة ما يقابل الاعتراض والتعليق بالصمت. ينطّ فجأة من على مائدة الطعام ويرقص، هازاً جسده كله على صوت موسيقى راقصة. يفعلها تماماً كما اعتاد أن ينتفض ناطاً على أثر نوبة غضب بسبب كلمة أو استعادة حدث جارح.

في كلا الحالتين يبدو شريف مأساوياً. يحاول أن يكون مقتحماً، فاعلاً. ولكن قدر الهارب، الوجل، الفزع، سرعان ما يحتضنه، يحيط به، ويستلب وجوده كله. إن رقصته ونوبة غضبه رغبة في كسر الطوق، والخروج الى الهواء الطلق. ولكن هيهات، يا أبا الشرف!! إن من خرّب حياته في ذلك الركن المعلوم، فهي خرابٌ حيث يحلّ وحيث يرتحل!

.٩.

هل بقي الأكل متعته الوحيدة؟ أشك في ذلك. كان لا يستمرئ الطعام إلا مع أحد. في مقهى في Watergrate اعتدنا اللقاء قرابة كل يوم حوالى الساعة الثانية عشرة نهاراً. هناك نجلس لنتحدث: نغتاب الآخرين، ونختلف في السياسة. وقرابة الساعة الواحدة والنصف يبدأ الحديث المتردد حول مشروع وجبة الغداء، ماذا سيكون، وأين سيكون. ثم يتسارع الحديث ويُحسم قبل أن نقفز جميعاً متجهين كالعادة الى بيت شريف. نمر على محل السمك أو اللحم، ومحل الخضار والخبز. وشريف أكثرنا حضوراً لأسباب لا تُحصى. منها أن بيته، بيت الأعزب، هو الملاذ الوحيد لمتزوجين. وأن هذا الملاذ رهن إشارة شريف. وإشارة شريف رهن مزاجه. ومزاج شريف عكرّ دائماً إلا في اللحظات النادرة. ثم أن القرار الذي يتحكم به شريف عادة ما يكون قراراً غير مأمون. فقد يكون شريف غير مطمئن ذلك اليوم لواحد منا بعينه. ولأنه يفضل الهرب على المواجهة، والسلامة على المعترك، فكثيراً ما يفلت من بين يدينا لحجة من الحجج، أو يفلت دون حجة ويغيب. ويتركنا، وقد أنهك مشروع الغداء أصابعنا، لا قدرة لنا على الإمساك به. وهو أكثرنا حضوراً أيضاً لأن الحديث عن الطعام وطرق إعداده تستهويه بصورة تبدو استثنائية. فتراه الوتر المنفرد، يتغنى بقطعة اللحم وضرورة أن تكون طازة "لأن العين هي التي تأكل يا أبو الفوز!"، وضرورة أن

"تُقمر بالزيت قبل أن تُطبخ". و "هذه الزلاطة عجيبة يا أخي بالخل لا بالليمون."

إن ألحانه تتألق في مرحلة إعداد الطعام. وهو يحب أن يُعد ويعمل كل شيء دون تدخل أحد. يجرب بفمه نتفة من الخضرة وأخرى من المطبوخ في القدر، وهو على قدميه لا يثبت في مكان. وحين ينتهي ويعرض كل شيء على الطاولة الخفيضة وسط الغرفة، أقول له: لَمَ لا تضع كاسيت يوسف عمر؟ يدسه في جهاز الموسيقى فيبدو أكثر طرباً. وعلى الطعام ينقض وينهي المهمة في دقائق. نقول له: لا تتعجل يا شريف! ولكنه يزداد تعجلاً. ثم يقفز بصمت تاركاً الجميع في أول إقبالهم على الطعام. هذا هو شأنه دائماً. وهذا النَفَس القصير الذي يتضح مع الطعام يتسع لعلاقة شريف مع كل شيء. مع المحادثة والعلاقة والمقهى والكتاب والكتابة. كل شيء سرعان ما يتطاير حوله كالغبار، وهو يكشه بتدفق لسانه الساخر اللاذع كما يكش الذباب.

اعتدت تناول وجبة الغداء معه كل يوم تقريباً. خاصة بعد أن تعكر مزاجه مع البعض، وبعد أن اضطربت حياتي العائلية، أنا الآخر. ألتقيه في المقهى فنذهب سوية في الساعة الموعودة. أو يتصل بي هاتفياً على عادته: "ها أبا الفوز، الأكل جاهز". وإذا ما جئته أنا، دون لقاء مقهى أو اتصال تلفوني، يُخرج رأسه الذي يشبه كومة دغل كثيفة من شباكه في الطابق الأول، وإذ يتعرف على الطارق يتبسم: "ها طردوك؟ تعال اصعد". ثم يرمي لي بمفتاح شقته. كان يسكن شارع Broughton، في منطقة West Ealing، حيث أسكن. المقربون الذين ألفوا الغداء سوية في بيته هم، بالإضافة لي، أحمد مهنا، نامق كامل، علي عثمان، وأحياناً هاشم شفيق ويوسف الناصر.

.١٠.

كل نوم عكرٌ هذه الأيام. كلُّ حلم نذير. ما من أحد من صحبة الأيام الأخيرة عرف طعم الطبيعة في جسده وروحه. كل شيء مصنوع بفعل التوجس، مُعدٌّ لشيء يليه. كنت استيقظت في صباح ٩/١٠ وأنا على يقين بأن خبراً كالح اللون كطائر مشؤوم ينتظرني. ولكن لا أحد. في الظهير عرفت أن شريف ازداد سوءاً. جلست على الطاولة، وبدأت أنسج لوحة بالأسود، نقلاً عن التخطيط السريع الذي وضعته لشريف في المستشفى. الخطوط لينة في اليد، إلا أن الشبه عصي فلم يعد شريف إلا صورة مزورة عما كان عليه قبل أقل من أسبوعين. وبقيت أنسج من الخيوط الفحمية شبكة الآلام. لا تلك التي رأيتها البارحة وأول البارحة من الاحتدام. بل تلك التي رأيتها في البصيرة الداخلية. في نبضة الحب المتصارعة داخل بشرتي. رحت أنسج عنف أساه من عنف محبتي، بالأسود الذي لا يرقّ حتى استعدت الشبه، ولكن بفم صارخ لم يعد فم شريف. وأنف عظمي لم يعد أنف شريف. ووجنتين ذاويتين لم تعودا وجنتي شريف.

اتصلت بي كفاية زوجة أحمد المهنا، ورجتني أن لا أزور المستشفى، فالنزع الأخير ينضج مع الساعات. والأمر ثقيل الوطأة على الجميع. وقد لا يحتمل القلب الموجع ثقل وطأة كهذه. وكنت أرغب أن أشهد اللحظة الأخيرة، لحظة المغادرة. لأنني لم أتشكك بصحة النبوءة التي

بقيت تهوم في الفراغ منذ البارحة، بأن شريف ميت اليوم. في ظهيرته، أو في مسائه، لا محالة. على أن المساء أليق بالروح، تحلق غير مرئية في ظلامه الكوني. فليبلغ النزع منتهاه في ليلة هذا اليوم إذن. وليصبح شريف، في لحظة عابرة، شأن كل لحظة، خبراً من الأخبار، وورقة مطوية من أوراق التاريخ.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً رن التلفون، وكنت أحتسي كأس السلوان واختلاق التعزيات. حين عرفت ليلي أنه صوتي ارتبكت، وسألتني أن أعطيها (ن)، الذي كان الى جانبي، لتتحدث معه. عرفت من نبرة صوتها أن شريف الربيعي قد غادر، قبل دقائق، حياتنا الأرضية الى الأبد. توفي في الساعة العاشرة والأربعين دقيقة تماماً. كانت نوبة السهر معه على عاتق يوسف ونامق، ولكن النزع الأخير احتدم بعد التاسعة. كان شريف فاقد الوعي تحت تأثير المخدر. ولكنه بين حين وآخر يرفع ذراعه بصمت الى الأعلى، لا احتجاجاً ولا طلباً للغوث، بل محاولة صامتة للامساك بالماضي الجافي.

كان نَفَسه يتثاقل منذ ساعات. يثقل ويخرج صوتاً كالزحير. ركبتاه وفخذاه دب بهما ورم منذ البارحة، أو قبيل البارحة. المياه التي كانت تتسرب الى داخله عن طريق الأنابيب بدأت، بفعل توقف أعضائه الداخلية، تنز عبر بشرته. قيل أن الكليتين توقفتا تماما. وكذلك الكبد، أو كاد. والمياه بدأت تفيض في الرئتين. ولم يعد لهواء هذه الدنيا متسع فيهما. كان الجميع يتحلق حوله كما يحدث في اللوحات الغربية القديمة. المشهد ملون وصامت. أبو أشرف يلاحق أنفاس شريف المتسارعة بتلاوة متسارعة من المصحف. الآخرون يراقبون وقد جفّلت تلك الأنفاس مدامعهم فما تسيل. الشرشف الأبيض، الذي يغطي الجسد العاري حتى الحلمتين الذابلتين، يعرض، وسط الطيات الكثيرة، للبصيرة وحدها خفقة تُشبه خفقة القلب. ولكنها أهدأ حركة وأعمق

رقة. وكأنها خفقة جناح لحمامة في نصف إغفاءة. كانت الخفقة لا تضرب باطن الشرشف، بل تمتد فيه مثل ريشة جناح لحمامة كسول. أحسب أن صمويل لحظ ذلك فغض طرفه. أو أن بصيرته أدركت الإشارة فغفل عنها بفعل التوتر الذي أخذ بمفاصل الجميع. لأن تلك الخفقة لم تكن من موضع القلب تحت الشرشف الأبيض، بل دونه قليلاً. عند الحجاب الحاجز، أو فوق انحناءته. عند الحجاب الحاجز غديرٌ ما، بحيرة مياه رائقة، تنعكس على سطحها مئات الأقمار. مئات النجوم. مئات الإضاءات التي لا تنتمي الى زمننا نحن. زمن أجسادنا المخضبة بالخيبات والآلام والجراح. بحيرة تشبه انحناءة قوس على وتر. أو انحناءة عطوفة لشاعر من كوكبنا الأرضي.

لم يتشكك صمويل كثيراً ببصيرته. إلا أن بصره الحائر استعرض، بصورة خاطفة، الوجوه. عله يلمح انتباه أحد لتلك الحركة التي تشبه نبضاً ليس كنبضة الساعة، ولا نبضة القلب. ولكن أحداً لم يلتفت الى استعراضه. إحساسهم بالفقدان أفقدهم حاسة المراقبة.

اضطراب الشرشف في الموقع المعلوم لم يهدأ، بل أصبحت الخفقة أكثر بياناً. حتى أن الشرشف، بفعل الحركة، بدأ ينحسر قليلاً عن صدر شريف. ينحدر قليلاً عن عظام الصدر الظاهرة. وإذْ قارب حدود الحجاب الحاجز، حدود ذلك الغدير غير الدنيوي، بانت، ويا لدهشة صمويل، أطراف جناح صغير لحمامة صغيرة، على شيء غير قليل من الاضطراب والهلع. وكأن انحسار الشرشف قد كشف لها عن عالم غير العالم الذي تنتمي اليه. كانت تحشر استدارة صدرها في الحفرة الصغيرة تحت الحجاب الحاجز تماماً. تدفع بصدرها داخل عش وهمي، وهي تُكثر من استدارة الرأس دون هدى. ما أدهش صمويل أن احداً ممن حوله لم يرَ ما يرى. حاول أن يقف بنية فعل شيء ما. إلا أن الحمامة، لفزعها، قفزت بخفقة جناح واحدة واستقرت على حافة

الشباك المغلق. هناك كانت تزدحم ظلمة الليل على سطح الزجاجة. وكأن الظلمة قد أسرت، بفعل رغبتها في التدفق الى الداخل، كيان هذه الحمامة. تماماً كما يأسر الضوءُ الطائرَ، أي طائر.

وقف صمويل غير متردد هذه المرة. اقترب من الشباك. مد يده الى حافته السفلى، حيث تقف الحمامةُ قلقة فزعة. ضغط على الحافة بحذر وهدوء. وحين رأى انفراج الفتحة تكشف عن الظلمة، أحس بلمسة هواء ليل الأبدية يتدفق الى الداخل. عاد الى مكانه بذات الحذر والهدوء، وجلس على كرسيه.

كانت الحمامة قد اختفت تماماً. رآها تفلت من الفتحة، مخترقة ظلام الليل وهواء الليل، اللذين واصلا تدفقهما الى الداخل، حيث ترقد الجثة.

لندن ١٩٩٧

الموعد المؤجّل

.١.

في قاعة المؤتمر الذي دُعيتُ إليه في فندق "كراون بلازا" في العاصمة عمان، كنت اخترت مقعداً على طرف قريب من الباب، كمن يجلس على حافة هامش ليظل محتفظاً بمشاعر أنه طارئ، أو قادر على أن يفلت في لحظة ضيق. جاء عبدالستار ناصر، وهو يحمل لي نسخة من روايته الأخيرة "قشور الباذنجان"، وجلس إلى جانبي. كانت صفوف المقاعد تكاد تكون فارغة. أعطاني النسخة الأنيقة الصادرة تواً برائحة المطابع. سرعان ما تطلعت إلى صفحتها الأولى طمعاً في قراءة إهدائه. كان عادة ما يكتب لي إهداء "مشبعاً" بعاطفة صداقة جد خاصة. و لم يكن هذا الاستثناء الوحيد. كان عادة ما يتوسل صيغاً خيالية لا تخلو من رغبة في المفاجأة، والاستثارة، واللعب أحياناً. في مجموعته القصصية الأولى على ما أذكر، وضع في التعريف بنفسه على الغلاف الأخير: " ... لم يمت بعد، وكان من مواليد ...". كان يحب لعبة في الصياغة كهذه. كان في حياته العملية الكثير من لعبة الصياغات هذه. طفولة مؤقتة على حافة نضج مؤجل ثقيل الوطأة على روحه كما يبدو.

في صفحة الكتاب الأولى كتب بخط أنيق معهود منه:

"فوزي كريم الشاعر، فوزي كريم الصديق، يحطمني إحساس أن



تكون هذه السنة آخر شوط بيننا. واحد منا سيرحل إلى هناك، وأرجو صادقاً أن لا تكون أنت. عبدالستار ناصر، عمّان، ١٥/٥/٢٠٠٧ ".

استدرت إليه وعانقته بعاطفة أوضح ما فيها أنها عاطفة حائرة: "لماذا؟" قلت له. وكنت أعني: لَمِ هذه الندبة السوداء على صفحة القلب؟ كنت أتوقع إهداءً دافئاً، لا يخلو من افتتان لفظي. فعلاقتي بستار تعود إلى الوراء أربعين سنة. تواصلتْ رغم سفري إلى المنفى الإنكليزي عام ١٩٧٩. وبالرغم من أننا لم نكتب رسائل لبعضنا، و لم نتواصل هاتفياً. و لم نلتق ببعض إلا لماماً في السنوات الأخيرة، إلا أن علاقتنا ظلت ذات رابط مشيمي، كان ستار يرغب عن وعي أو لا وعي، في توثيقها داخل كل كتبه التي أصدرها، على كثرتها. كان حريصاً أن يحشر اسمي في أي مكان تجده عاطفتُه ملائماً. ولعل ما كان ييسر عليه هذه المهمة أن ذاته،

ذات المؤلف، كانت دليل القارئ إلى كل حدث في النص القصصي. إلى كل فكرة، عاطفة، استعادة ذاكرة، حلم، أمنيات.... كان يحتل شخصياً أدوار أبطاله جميعا. وبذلك يجد حرّية أن يستعيد أي صديق يشاء من خزين ذاكرته، بعفوية صبي مراهق.

ظل هو صامتاً، وابتسامة شاحبة، شديدة الشحوب بفعل التأثر، على صفحة وجهه. لم يلتفت إليّ، وأنا الآخر سرعان ما شغلتُ نفسي بما يجري على منصة المؤتمرين. ولعلي لم أغفل ردة فعلي، أنا الآخر، فوجدتُ فيها الكثير من شحنات الفزع مما بدا لي نبوءةً في غير محلها. فأنا ما زلت أرزح تحت وطأة ارتباكات في نبضات القلب منذ سبتمبر الماضي. جئتُ المؤتمر بعد محاولة اعتذار عن المشاركة لهذا السبب. وإذا كان هناك من طرف معني في إهدائه فسيكون طرفي أنا بالتأكيد. بالرغم من أن ستار كان لا ينقطع عن الشكوى، التي يرغب أن يجعلها عابرةً، من كثير من علل جسدية دفينة، منذ أيام بغداد المبكرة، معظمها غامضُ الملامح. كنتُ عادة ما أعزوها إلى رغبته الملحة في لعبة الصياغات الخيالية تلك. ولكني إذا ما تريثت طمعاً ببصيرة عادلة أبعد، فسأجد أكثر من عامل وراء هذه الشكوى، كامن في سهولة المكسر، تحيط بكل شيء في تكوينه، جسداً وروحاً. سهلُ المكسر في العلاقة مع النفس. سهل المكسر في العلاقة مع الآخر. سهل المكسر في العلاقة مع الحياة المحيطة.

أكتب الآن بعد شهور عدة مما حدث في قاعة المؤتمر تلك. قبل أيام كنت أقنعتُ النفس بأن زيادة معيار الدواء لن يكون مؤثراً، كما هو متوقع، وفاعلاً. ولذا فتسارعُ النبض والصدمةُ الكهربائية التي أوقفتْه من جهاز (ICD) تحت الجلد، بعد أيام ثلاثة، كان دليلاً كافياً على فشل الدواء من جديد، ودليلاً على أن إجراء عملية الاستئصال للندوب داخل القلب، تلك التي تسبب هذه الأعراض المريعة، والتي تُسمى

(Ablation) هو الحل المتبقي النهائي. الأمر الذي حملته معي، ثقيلاً كابياً، إلى العاصمة الأردنية عمّان.

كنتُ قد راجعتُ يومياتي، مدفوعاً بأمل أن أستعيد عافيةَ القلب من التسارع المفاجئ، بفعل تأثير الدواء الذي أتناوله وحده. كنتُ كثير الوسواس منذ اقترح الدكتور رولاند العلاج بعملية الاستئصال بالقسطرة التي تلاحق، داخلَ القلب، مواقعَ الندوب المسببة لارتجافه، ومحاولة إطفائها. ولعل الذي فجّر ينبوع هذا الوسواس كامن في جملة عبد الستار، التي كُتبت في إهدائه قبل ستة أشهر. كانت محاولة تنبؤ صريحة وجريئة. صراحتها وجرأتها هما اللذان جعلاني أنحني موسوساً أمام سلطان غياب العقل، وأستجيب لإملاء الغيب. فأنا عادة ما أزعم بأني كائن غير متدين، لا يوقن بغير ما يملي العقل، وما يملي العلم، وما يملي التقدم المذهل لكشوفات الإنسان. لم يحدث أني ارتكستُ يوماً، مرتداً إلى عالم السحر، والمعجزة، والتنبؤ، وتناسخ الأرواح.

سمعت، شأن كل واحد فينا، نحن البشر الذين نعرف بعضاً، الكثيرَ الكثير عن الخوارق التي حدثت لمخلوقات سيئة الحظ. أذكر من الستينيات أن مرقداً لأحد الأولياء اكتُشف في شارع الرشيد، على أثر تهديم مبنى قديم من أجل بناء عمارة حديثة. مرقد الولي لم يكن من حجر الصوان. ولكن معولاً لم يستطع أن يقربه لهدمه دون أن يقدح عالياً. قال (توفيق حنْدَش)، ابن محلّتي العباسية: "أنا الذي رأيت، يا جماعةَ الخير. تريدون أحلف بالكعبة؟ استغفر الله! بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود، رأيت العامل مع معوله يرتفع بقامة ثلاثة رجال في الهواء. رأيته، وكأن قوة كهربائية قذفت به إلى أعلى، ما أن اقترب بمعوله من الضريح حتى اندفع مثل نافورة إلى أعلى من أسلاك الكهرباء، وبقي هناك معلّقاً لدقائق. كنت على مقربة، ولكن الناس، أُمّةَ الثقلين، هجموا من كل جانب. فصرت عن غير إرادة في الخلف، بعيداً. و لم أعدْ

أستطيع رؤية شيء. هذه هي كل القصة. والذي لديه زيادة فليتفضل، ولن أكذّبه. ولكن الله شاهد."

هل كان (توفيق حَنْدش) كاذباً؟ صادقاً؟ أم يرى رؤيا غير قابلة للتصديق أو التكذيب؟ نعم هناك فجوة بين حقل الصدق وحقل الكذب، لا تنتسب هذه الرؤيا لأي منهما. فجوة تنتسب لعالم داخلي لا يخضع لمعيار. وهذه الفجوة لها الحق في أن تُملي من قوى اللاوعي ما تُملي على هذا الكائن الأعزل، الكائن الزائل. أنا قطعت شوطاً في هذه الفجوة. ربما قطعها كلٍ واحد منا بمقادير متفاوتة. ولكن الوحدة، والعزلة التي عشتها في السنوات الطويلة الأخيرة في لندن، والتي أخليتها من كل الشوائب، كانت عاملاً حاسماً في شحذ مجسات هذا العالم الداخلي. وجعلتني لا أختلف عن (توفيق حندش) إلا بمقدار القناعة بأني واهم دون أدنى شك. لا بل خادعٌ النفس والآخر. هذه القناعة التي كنت أسميها لعبد الستار أيام بغداد بـ"الوعي المراقب"، هي ثمرة هيمنة العقل.

في البيت الذي أسكنه لوحدي سنوات في شارع Hill Rise، وفي العزلة التي أرتضيها عن رضاً ظاهر، لا جذر للقناعة فيه، حين أُكمل كل يوم مهمات الطابق الأرضي: إفطار، غداء، عشاء خفيف مع كأس نبيذ واحد، لا أجروْ على تجاوزه، يتخللها كثيرٌ من القراءة، كثيرٌ من سماع الموسيقى، والرسم أحياناً، وكثير من الكتابة. أقول في هذا البيت الذي لا يختلف فيه صمت النهار عن صمت الليل، إلا في وسائل التعبير. في هذا البيت، حين ينتصف الليل وأحاول ارتقاء السلم الخشبي ذي الصرير...، عادة ما أتوقف أمام المرآة الواسعة التي في مدخل البيت. أتأمل تفاصيل هيئتي، التي تبدو لي غاية في البؤس. شعر منفوش، كانت "ع" تعتقد أنه المظهر الوحيد الملائم للكاتي الكبيرة. منفوش، وكأن عصفاً غبارياً قد عبث به طيلة النهار. أما سيماء الوجه فتكاد تنطق عن

غفلة قريبة النسب من البلاهة. الملابس تنحدر، وكأنها تهوي عن جسد أوهن من مشجب عتيق. ولكن العقل لا يتضح إلا في شعاع يفيض من العينين. من النظرة العطوفة الحانية. من الأسى العميق، لا على النفس، بل على كل نفس في هذا الكوكب البائس. وهنا، من هذه اللحظة، أجدني أملك القوة في أن أحتج صارخاً في وجه المرآة، وجهي: "لمَ لا تبتسم فيما أنا أخرج لساني ساخراً. ولو كنتَ غيري، أو واحداً من الجن كما تزعم الخوارق، فلم لا تخرج من إطار هذه المحاكاة البليدة؟ ها؟" وأردد بيتاً لأبي العلاء، إذا حدث أني تذكرته:

قد عشتُ عمراً طويلاً ما علمتُ به حساً يُحسُّ لجنيٍّ ولا ملكِ

حينها أجدني مهرجاً لحد الابتذال. أجعل من سبابتيْ كفّيّ قرنين شيطانيين. أخرج لساني إلى آخره، وأُبحلق عيني وأنا أهمس: "لمَ لا تخرج أيها الخفي، كما تدعي الخوارق؟ واوووييييي..!". بعدها أعود كما كنت، سوياً. دون أن تبدو على سيمائي أية نأمة من دعابة، أو عبث. أعود مهموماً، جاداً في أساي، وأعاود ارتقاء السلم إلى غرفة النوم.

هذا الارتقاء اليومي للسلم، أصبح في إحدى القصائد صيغة لرؤيا أبدية، هي أبعد من كل شيء أرضي آلفه. ضرب من التحرر أو التسامي الروحي:

الغزاة

في الليلِ أطفئُ كلَّ ضوءٍ،

أترك الشباكَ دون ستارةٍ،
وأشرّعُ الأبوابْ.

إني أعرّضُ للغزاةِ خرائبي:
كتباً، ومحبرةً، وأشباحاً تبادلُ بينها الأنخابْ.
وأجرُّ ذيلَ ردائي الملكي،
تتبعني التماعاتُ النجومِ على السلالمِ،
دون حراسٍ ولا حُجّابْ.

أرقى، فينكشف الحجابْ.

اختارُ من شبكِ المجرّةِ ما يطاوعُني
لكيْ أفنى
بظلمةِ ليلها الجذّابْ.

أو رؤيا لا تخلو من مس، ترى في العتمة، وتسمع في الصمت، وتمس اللامرئي:

قارئ في الظلام

أنت تحرص في ساعةِ النومِ أنْ تُطفئ الضوءَ،

أنْ تتأكد باللمس من قفلٍ بابكَ،
من أن نافذةَ البيت مسدلةَ الستر.
تقفز كالقطّ فوق السلالم،
تندسّ تحت الفراش،
وتحلمُ:
أن الكتابَ الذي كنت تقراه فوقَ مقعدكَ
الآن يُفتحُ ثانيةً في الظلام،
وأصابعَ أُخرى تقلبُ أوراقه.
أن عيناً تُديم النظر
في الفراغ المدوّم بين السطور!

لا بد أن فاعلية كهذه تيسّرت لي بفعل كثرة حواري المسموع مع النفس. الحوار الذي تُتيحه الطمأنينة بأن لا أحد يعرف، ولا أحد يسمع. كنتُ لا أتورّع عن أن أُحاور نفسي، كما لو كانت كياناً آخر، بصوت فيه الكثير من النبرة الواقعية، ومن الجدية. أو حتى غير الجدية. هذه العادة كادت تنتقل، عن لا وعي مني، إلى خارج البيت. وأنا أغذّ السير وحيداً في شوارع لندن. أو أجلس وحيداً على مقعد الباص، أو مقعد الأندرغراوند. لأني كنت، بفعل استغراق كلي في الداخل، أغفل حقيقة أن الصوت الذي أحدّثُ به نفسي يمكن أن يكون صوتاً يصدر عن الحنجرة، لا عن فم غير محسوس داخل المخيلة. ولذلك، وفي أحيان محرجة، أجدني أسمع صوتي فجأة. صوتي الذي لم أعتد سماعه، والتعرف عليه بيسر. أسمعه يتحدث بوضوح كمنْ مع أحد. ونغمة الصوت تشف عن عاطفة حية: غاضبة، شاكية، متوسلة،

ناصحة... لحظتها أتوقف جافلاً، وألتفت إلى أكثر من جهة، خشية أن أكون مُعرضاً لوجود شاهد أو أكثر على ما حدث. وإذا ما وجدت هذا الشاهد المنتبه، أجدني على الفور أواصل الكلام عن عمد. أحدث النفس عن وعي، لا عن غفلة. لأنها تبدو لي في حينها أهون الشرين. فنحن نخرج كلاماً لا لأحد حين نرى زحمة، أو نشعر بفقدان، أو يفوتنا قطار. يا للبؤس! بعدها يفيض بي أسى بفعل الحرج وحده.

يُقال إن صمت العزلة يولّد أصواتاً لا تخرج من الشفة واللسان. بل من داخل قحفة الرأس. وإذا أضفتَ لصمت العزلة هذه مقداراً لا محدوداً من الهلع الليلي، الذي كان يعاودني لسنوات، فإن الأصوات لا شك ستخرج من الجسد برمّته. لأني طيلة هذه السنوات أختبر ساعات الليل في قدراتها على توليد هيئات لا محدودة للموت المؤجل. يشترك الجسد برمته في هذا. كأن يبادر إبهام القدم اليمنى إلى إيهامي بالخدر. فأقول: نعم، الخدر وليد عجز القلب عن إيصال الدم إلى نهايات الجسد القصوى. أو أن اضطراب المعدة يفاجئني بضيق نفَس سرعان ما أُحيله إلى تهديد شرياني بالاختناق. حتى القمر الغائم عبر النافذة يعزز من وسواسي بأن نظري هو الغائم، لا القمر. غشاوة هي بوادر إغماء على الأرجح. وإذا ما تحقق واحد من هذه الاجتهادات الجهنمية، فكيف سيتيسر لي أن أزحف فوق السرير إلى جهاز التلفون، مستعيناً بالرقم ٩٩٩. ولو عجّلوا بالاستجابة، وبلغوا البيت في دقائق، فكيف سيتيسر لهم فتح الباب. أتصل بأخي قبل ذلك، فلديه نسخة من المفاتيح. ولعلهم يفضلون كسر الباب إذا لم يصل على وجه السرعة. رجال الاسعاف لهم خططهم الخاصة. ولو حدث أن حطموا الباب، فيا لفزع الجيران في منتصف الليل هذا. هنا يجعلني الحرج، من مجرد تصور هذا، أتكوّم على نفسي مثل القنفذ. ولكن هذه الغُلواء الخيالية السوداء لا تعفيني من أن أتوقف فجأة، كمن يصحو، لأُشفق على نفسي إشفاقاً صادقاً.

هامساً: لم هذا التنكيل القدري بالنفس، الذي لا مخرج منه؟ ولكن حتى لو كانت امرأة رؤوم إلى جانبك الآن، واستيقظت على حاجتك، فما الذي يتسنى لها أن تفعل لسوء الطالع هذا. إن سوء الحظ يدوّم كمجرة بين المجرات اللانهائية. أمر لا صلة له بإرادة الإنسان وأدواره الزمنية المحدودة. وهنا تحلّ أمامي "إرادة" شوبنهاور "العمياء". فأطمئن إلى أني أثق بفكرة كبرى كهذه، على الأقل، من أجل أن أتوازن. الإرادة العمياء لا تنطوي على سوء الحظ هذا، ولا على وجودي الحي برمته، بل على الإنسان، والأكوان.

.٢.

نعم، هناك فيوضات روحية يشحنها الشعر والفنون، متوجة بالموسيقى. تشحنها المعرفة في كل حقولها. ولكن تلك الفيوضات الروحية لم تنفصل لدي عن سحر المادة الملموسة: الألوان في اللوحة، الكلمات في الشعر، الصوت في الموسيقى، والدقة الميكانيكية في فاعلية العقل والجسد الإنسانيين. وكأني أحاول توفير أعلى حد من التوازن بين ما تمليه الأهواء الخيالية، والفيوضات القلبية، وبين سلامة العقل من شطحات الخرافة. فمن أين تفجر بي هذا الوسواس وملأني بالحذر؟

لا أنكر أن عدم الايمان لدي لا يعني إنكاراً لوجود قوة مسيرة للكون. لا يعني إيماناً بالصدفة المحضة، التي تتعثر فيها الظواهر. أمر لو حصل كفيل بأن يملأني بالقلق والمخاوف. ولكني كيان متسائل، متشكك منذ الصبا الأول. أعرف أن التسميات التي أمليت على هذه القوة المسيرة، وهي كثيرةٌ متنوعة كثرةَ وتنوعَ لغات البشر، هي رموز صوتية لا أكثر، أملتها مخيلة البشر كما أملت أديانها كل المواصفات البشرية العجيبة عليها. حتى بدت كارهة، غاضبة، قاسية، طامعة بامتنان البشر، محتاجة للعرفان بالجميل، أو مهددة، منذرة.... هذا التصور القديم لم يكن، أعترف، واضحاً لدي وضوح من يملك أن يتحدث فيه بتدفق وجرأة. إن خالق الكون حاضر في كل مادة محسوسة، وفي كل وجود غير محسوس، مُدرَك بالعقل أو غير مُدرك. وهو على تماس مع

الكائن، معي، ومع كل شيء، محسوس وغير محسوس. إنه ليس الخالق الذي يراه الحلولي. فكرة أن يحل الله في الطبيعة، أو أن يتوحد الكائن الصوفي مع الذات الإلهية تبدو لي مضحكة. لأن كليهما يجعل من الله قوة خالقة تعمل بقصدية، ونفعية مع الإنسان الذي لا يشكل من مدارات الكون اللامحدود ذرة أو بعض ذرة. هذا أمر لم أكن أطمئن إليه. كما لم أكن أطمئن إلى قدرات العقل الإنساني على إدراك مالا أعتقده قابلاً للإدراك. هناك فجوات كبرى تبتلع أية إجابة. أرى العقل، وهو في حيرته، في أحسن حالاته.

لا أنكر أن هذا المعتقد المرتجف، المتشكك كثيراً ما منحني عزاءً أمام إله الأديان، الذي صاغه الإنسان على قدر عقله هو. وكثيراً ما خفف من وطأة الموت، التي واجهتني أكثر من مرة، حتى ألفتها. أعني ألفت مخاوفها أيضاً. والألفة مع الذعر لا تُلاشي الذعر. العراقيون يتعذبون تحت سطوة المظالم منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولقد ألفوا الموت المجان. ولكن الأمر لم يجعل الموت المجان يسيراً، هيناً.

يحلوا لي، تحت خيمة هذا الإحساس القلق المتشكك، وهذا المعتقد بأن الله هو الكون، الذي يحيط ببشرتي التي تنبض عبرها الروح، أقول يحلو لي أن أرى الموت أخف وطأة من موت المؤمن النفعي. إن بشرتي الشخصية، والكلمة هنا ليست مجازية بالتأكيد، هي بشرة الكون أو الله أيضاً. لأن الله كل الكون. هو هذا الكتاب المفتوح أمامي ضمناً. نحن نشترك في بشرة واحدة. وما من تماس بين بشرتين. لأن وجود بشرتين يعني، في أبسط المعاني، وجود كائنين. وأنا جزء محدود في الكل غير المحدود. ولذلك يبدو انتقالي من الحياة للموت انتقالاً غير مجازي، هو الآخر. لأن الموت لا يعني العدم، الذي نعرفه في خزين المفاهيم. ولكنه انتقال من هذه الخصائص الفيزيائية المعروفة نسبياً لمداركنا، إلى خصائص جديدة خفية عن مداركنا. الحية التي تلقي جلدها القديم إذ

تتجدد، ليست أيسر مهمةً من مهمة الإنسان هذه. حين نقول أن موتنا كامن فينا إنما نعني، عن غير دراية، هذه الحال المدهشة.

تصورٌ غير يقيني كهذا يبدو لي أكثر من مقنع، مقارنة بكل التصورات التي يمليها المعتقد الديني. تصور يجعلني، أنا، وحياتي، وموتي، شيئاً ما مجهولاً، لم يُخلق لمداركنا المحدودة. ولا شك أنه تصور مُغذ لي كشاعر. ولكن لا العكس. فأنا أرتجف هلعاً من مجرد إحساسي بأن عواطفي ومخيلتي الشعريتين يمليان عليّ تصوراً كونياً بهذا الحجم من الخطورة.

حين كتب عبد الستار صفحة الإهداء، كنت آملا بالعقار الذي أتناوله، فقد قطعت قرابة شهر دون تسارع خفقان، سافرتُ فيها إلى أربيل، قبل سفرة عمّان، وأنا أحاذرُ على حافة عافيةٍ معقولة تماما. آكل بشهية، وأنشغل بجدية، وقليل الاكتراث. و لم يتفجر الوسواس ويطل عليّ بقناع المنذر الغامض إلا في هذا الشهر الأخير، حين قال لي الدكتور المساعد، وهو طبيب صيني شاب جامد سحنة الوجه ولا يُحسن الابتسام، بأن العملية ablation، عملية استئصال الندوب داخل القلب أعني، هي الإجراء الوحيد المتبقي بعد فشل العقار، وأن هذا الإجراء غير مضمون النجاح، وينطوي على شيء من المخاطر. الكلمة الأخير امتصت من وجهه العابس كلّ صفرة القسوة التي فيه. حينها، وعلى الأثر، استعدتُ إهداء عبد الستار، عبر مشاعر إحباط باردة، وقد تحول إلى نذير، وحتى نبوءة. حين وصلتُ البيت لم أجروْ على البحث عن الكتاب، ومعاودة قراءة الكلمة الحارة الموجزة. لم أجروْ لأيام عدة على ذلك. لقد تخلخل فجأة ميزان خياري الذي بدا لي حُراً طيلةَ حياتي، بين حكم العقل وحكم الغيب. بين حرية الكائن وبين عبث قدره فيه. كنت أقترح عليهما بالتناوب صفحة مصيري البيضاء، ليكتبا عليها، كلا على حدة، قرارهما الضاحك.

.٣.

لا أُخفيكم أن اقتراب السنة ١٩٩٧ من نهايتها لم يوقظ هاجسي الموسوس فحسب، بل جعله دمّلة ناتئة. دمّلة متقيحة. فأنا لا أخلو من إرادة لمحاصرة الوسواس بقوة العقل. كما لا أخلو من كمّادات مهدّئة من عمق تصوري الميتافيزيقي، الذي أعرف أنه لا يخلو من غرابة.

في شهر ديسمبر ألحّت علي (ع) بأن أسافر معها إلى دمشق، في ضيافة والدتها: أهرب من البرد، وأستريح لخدمات البيت الواسع، وأقضي أيام أعياد الميلاد ورأس السنة دون كلفة، وسط عائلة كبيرة. وبسبب انعدام الثقة الصحية ترددتُ كثيراً. ولكني استجبت بفعل ضرب من المقاومة للضعف، الذي أرغب في التعالي عليه. طريق الطائرة يستغرق قرابة ساعات خمس. قد يرفع طيران طويل كهذا ضغط الدم، ويحفز القلب لضربات سريعة مفاجئة. "ولكني أشك أن تكون ساعات كهذه ثقيلة الوطأة على القلب لهذا الحد. ثم أن لديك رعاية الـ ICD. توكل على الله، واستمتع بشتاء عربي مشمس"، قال الدكتور رولاند، حين استشرته في هذا الأمر.

دمشق مشتى رائع بالتأكيد. ثم إن (ع) تحققت من توفر العيادات المتخصصة في علل القلب التي أنتسب إليها. وفي سوق الأسماك لديهم ما يُشبع شهيتي من سمك الشبوط. ولم أصحب معي كتاباً. قلت أنصرف إلى قراءة الكتب العربية، المتوفرة في مكتبة المضيف العامرة.

وحقيبة سفري الصغيرة تكاد تكون فارغة، لأن الغرفة التي سأقيم فيها تتوفر على كل مستلزمات الحمام. أما ما يتصل بالملابس الداخلية فأولى أن أشتريها جديدة. أمور كفيلة بأن تجعل من رحلتي رحلةً موفقة. ولكنها رحلة نموذجية محمولة برمتها على كف ملاك مُشفق. فإن داخلي الخفي لم يكن يخلو من أسى عميق. أسى كائن شاءت له حياته أن يصحب قدره الغامض يداً بيد. على سرير النوم، أو في أكثر لحظات اليقظة انشغالاً.

حين وصلت البيت بعد الظهر، وعلى أثر استراحة صغيرة، اقتُرح علي أن نتعشى خارجه. كنت أحسب أن استرخاءً ونوماً نهارياً قد يُفسد علي نوم الليل. ونوم الليل عصي حتى في بيتي، وعلى سريري. ولذلك استجبت للاقتراح، وأضفت عليه رغبتي في أن نأكل مشويات خفيفة في واحدة من هذه المطاعم الشعبية المفتوحة على الهواء الشتائي الطلق. كنت جربتها مرة، واستعدت فيها مقاهي بغداد، أيام الستينيات والسبعينيات. كنا عادة ما نطلب مشويات خفيفة من المطاعم الشعبية المجاورة، ونأكلها داخل المقهى، مع الشاي، وتحت قبة ليل رائق. وبفعل احتراسي من توفير منغصات لرقدة الليل القادمة، راعيت مقدار اللحيمات التي أخذتها، مع الخبز. فأنا لم أغفل لحظةً عن حقيقة أنني في دمشق. واني بعيد بُعدَ قارات عن لندن، أو عن مستشفى سينت جورجيس، إنْ أردت مزيداً من مصداقية القول. كنت محاصراً ببعض المخاوف التي تولدها الاحتمالات، والافتراضات، والتي ترتبط بالغيب على كل حال. فلو حدث هنا الذي حدث في لندن ذات يوم غير بعيد! و لِمَ لا يحدث؟ لو حدث أن هاجمتني تلك الارتجافة القلبية بفعل سبب خفي، واستعصى على الجهاز الصغير إيقافها، وإعادة القلب إلى وقعه الرتيب؟ لو حدث أن نُقلت بسيارة إسعاف إلى مستشفى هنا، ووقف الأطباء حولي في حيرة من أمرهم. وسارعوا في الاتصال بالمستشفى

اللندني، ولكن ما من طبيب يعرفني متوفر تلك الساعة من الليل. نعم الليل، لأن معظم الهجمات المريعة التي أخذت بخناقي قد حدثت في الليل وحده. نادراً ما حدث الأمر في النهار. في النهار أشعر بالمشاركة حتى من قبل الأشجار. في الليل ينفرد بك شبح الخوف وحده. شبح الخوف لا من شيء بعينه. أحياناً لو اتضح الخوف أنه من الموت، لبدا شبح الخوف على شيء من الألفة. ولكن شبح الخوف الذي لا هوية له لا حدود لاستثارته...... وهكذا، مثل مجذوب تأخذني الهواجس عنوةً، سرعان ما أغالبها وأنتصر، حتى ولو بقوة حيناً، أو بتعالٍ معظم الأحيان.

أنا رجلٍ عاقل. أنتفع من الأفكار التي أقرأها. ومن الرؤى التي أرويها. ولا أهمل فرصة الحكمة التي تُزهر داخل الخبرة. ألم أقرأ هيرمان هيسه، توماس مان، مورياك، شوبنهاور...وآخرين من الفصيلة ذاتها بهذا الدافع، ولهذا الهدف؟ فلمَ أجد مدعاة لهذه الهواجس المرضية الفظة؟

سوف أتأمل غرفة الضيافة الفارهة، والسرير المريح، وأستعيد مشاريعي التي شغلتْ الأيام الفائتة في لندن، والمشاريعَ التي ستشغل أيامي القادمة هنا. وسيأخذني النوم وسط التداعيات دون أن أشعر. لا بد أن يتم الأمر بهذه الطريقة. وإلا فما نفع العقل، والأفكار، والرؤى؟ ولكن....

ثم أنصرف إلى الضحك المفاجئ مع الضاحكين. وأقتحم حوارهم بحديث عن غبطتي بهذا الاحتضان العائلي. أصبح في لحظة منقسماً بين تعارضين: جبان لا عقلي، ومقاوم بلاغي! معهم، ودونهم داخل عزلتي بين جدران الاسمنت.

في الغرفة تصنّعتُ تعباً وإجهاداً، كفيلين بقيادي التلقائي إلى النوم.

كان السرير مريحاً. إلى جانبي جهاز راديو مضاء، ولكن بصوت خافت. بضعة صحف محلية. كتاب أحسبه رواية جديدة، وعلبة حلوى. جسدي مُتعب، ولكن رأسي متحفّز لنشاط مريب. أنا أعرف. لي خبرة في هذه المهمات الليلية. ألقيت غطاءً عليّ، ورأسي على الوسادة يتأمل في داخله. كانت عيناي على السقف المزوّق. حاولت أن أسترجع، كما وعدت النفس، مشاغلَ الأيام السالفة. قصيدة لم تكتمل بسبب مأزق لم أجد له مخرجاً. القصيدة تدخل أحياناً في نفق من الرؤى الغامضة. تؤلف نفسها هناك، ثم تواصل على هواها، إلى خاتمتها غير المضمونة. هذا ديدن غريب في الشعر. القصيدة التي حاولتها قبل أيام لم تكن كذلك. كانت كذلك في مطلعها، ثم في فقرتها الأولى. ثم سرعان ما حردت في لحظة الشروع بتأليف نفسها. توقفتْ. ولأن القصيدة لدي ليست ابنة لحظتها، فقد تركتها مؤملاً النفس بإكمالها في السفر، أو عند العودة. ثم احتل مشروع القصيدة الهندية القديمة حوض الدماغ الذي بدأ يكتسب حرارة المخاوف. القصيدة التي شرعت في ترجمتها عن الإنكليزية منذ فترة، ثم توقفت. توقفتُ لأنني تحرجت من أمرين: ترجمتها نثراً أولاً، عن ترجمة إنكليزية، لا عن اللغة الأم، ثانياً. ولكن ما من أحد يعرف هذه الدرة الشعرية الثمينة، فلم لا أكون نافعاً، حتى ولو على هذا القدر من الانحراف؟

مشاغل الأيام السالفة كلما رست على فاعلية الأدب والفن والموسيقى، كلما ازدادت نشاطاً. وكلما انصرفت إلى الحياة كلما ألّبت المشاغلُ الوسواسَ مزيداً من التأليب. فإذا تذكرت مشاغل الأولاد صرت أوهى من خيط عنكبوت. أو تذكرتُ مشاغل الدخل والحاجة تقوّستُ مثل قصبة في ريح. ولكن إذا ما تألّبَ عليّ الوسواس هذا، تصبح فاعليات الأدب والفن والموسيقى تلك في منتهى الاستقلال الأناني عني. غاية في الترفّع واللامبالاة. فلا الأدب ولا الحياة بقادرين على انتزاعي من القلق الليلي.

توقفتُ فجأة على نشرة الأخبار من الراديو الخفيض الصوت، المستقر إلى جانب سريري. وجدت ذريعةً كي أتوقف، كمن أفتقد شيئاً أضاعه. هل بدأت حمى الرأس بالوسواس؟ لو حدث الذي حدث في لندن ذات يوم غير بعيد؟ و لِمَ لا يحدث؟ ...

لم أغفل أن نذير عبد الستار كان على مقربة من موعده. بيني وبين الساعة الأخيرة من عام ٢٠٠٧ أيام معدودة. وسيدة البيت تعلن في كل حين أنها تعتزم إقامة حفلة نهاية العام في غرفة الاستقبال التي لا تخلو من سعة. ما أعجب أن تتم النبوءة على صوت الموسيقى الراقصة! ابتسمت. المشهد سيكون دراميا. فسأفتتح العام الجديد بقص الشريط الوردي لدخول الآخرة. بالرغم من أن عبد الستار لم يعيّن المكان الآخروي الذي سنلتقي فيه. الجنة، الجحيم، أم طابور الانتظار الطويل؟ إلى نهاية هذا الطابور الطويل الذي لا يبين مطلعه للعين أتقدم. أقبل على رجل طاعن في السن، منحني الظهر، يأخذ دوره في آخره، ويستريح على مقعد خشبي يشبه تختة تقطيع البصل في بيتنا القديم، فأقول له بتودد: إن لي موعدَ لقاء عاجل، فهل من سبيل يسير مع هذا الطابور العجيب؟ ينظر إلي بسيماء الملول قائلا: صفّ خلفي أخي، وعليك بالصبر. فأنا، منذ مقتلي في معركة أُحد، لم أتزحزح قيد أنملة إلى الأمام من مكان انتظاري هذا. في الغرفة الهادئة، نصف المضاءة، صاءت ضحكتي الحبيسة، المفاجئة، التي حاولتُ كتمانها باحتراس. تذكرت هذه الطرفة السوداء التي قيلت لي ذات يوم، وأشعرتني هذه الذكرى بالراحة. لأنها أدخلتني، أنا ووسواسي وحكاية الوحدة والقلب برمتها، في عالم عابث ومضحك. كم بدا خيالي كاريكاتورياً، خفيف الظل، مقارنةً بوطأة الوسواس المرضي! فقد انتبهت أن الساعة تجاوزت الثالثة صباحاً، وأنا المنهك بفعل السفر وقلة النوم، لا قدرة واضحة لدي على إيقاف عجلة القلق. كنت أخشى أن القلق الحاد سيرهق القلب. وإن

القلب إذا ما أُرهق سيحتج، وسيرتجف بسرعة تفوق طاقته. وستحتاج ارتجافته إلى تدخل جهاز ICD بالصدمة الكهربية العالية. وستعيده إلى نظامه وهدوئه، بعد أن تنتزع كياني برمته من حياة الأمان المعتادة لدى الكائن السوي. ولكن إذا لم يستجب الجهاز السحري الصغير؟ وإذا استجاب ولكن بصدمات متتالية لا تتوقف؟

في غمرة تواتر هذه التساؤلات أحسست أن انقباضاً حاداً يمسك بأحشائي. رأس ثعبان صلب يتحرك ملتوياً باتجاه الأعلى. أخرجت على عجل حبوب الفحم السوداء، محاولاً إيهام النفس بأنها حركة غازات حادة. الحبوب الفحمية كفيلة بتهدئتها، إلى أن يحين الصباح. كانت ضربات القلب تعنف، وأنا أمسك بالرسغ اليمين، وعلى شرايينه أُطبق سبابة وإبهام اليد اليسرى، باحثاً عن أثر للنبض. التسارع الحاد لا يترك أثراً واضحاً للنبض. يغيم النبض بتيار السرعة الخاطف. بعد دقائق، أو ثوانٍ ربما، وجدت نفسي أستيقظ من إغماء مفاجئ. إغماء لم أعرف كم امتدّ، على أثر التسارع الحاد، الذي لا يترك للدم فرصة بلوغ الدماغ في الرأس. ويقظة على أثر صدمة الجهاز السحري الصغير. كنت مجهداً، وجافلاً، ومحاولاً بجهد مكثف أن أُلمّ بما حدث بأسرع وقت ممكن. كنت محرجاً لأني وجدت السيدة المضيفة داخل إطار الباب المشرع تحيط بها وعثاء النوم، مذعورة، تسألني: "سلامات. ما الذي حدث؟" "سلامات. لا شيء. أنا بخير. أحسب أني ذهبت في إغماءة خاطفة." "ولكن الخادمة سمعت تنهداتك الصارخة، وضربات يديك الحادة على الفراش، فأيقظتني مذعورة. الخادمة، لحسن الحظ، كانت تقضي حاجة في المطبخ المجاور فسمعتك."

"كل شيء على مايُرام الآن. أرجوك أن تهدئي، وسأشرح الأمر صباحاً. أنا آسف تماماً."

. ٤ .

في أرضية الصالة التي تقابل الغرفة التي أقيم فيها، مدت (ع) فراشاً اسفنجياً، وغطاءً خفيفاً لنومها الليلي. طلبتُ منها على حياء أن تتخلى عن نومها الهانئ في فراشها داخل غرفتها الخاصة، في الطابق الثاني من المنزل الكبير، وتتحمل النوم المؤقت على مقربة. فهي الشخص الوحيد الذي آلفه من العائلة الطيبة: "نصف حياتنا التي نعيشها تعتمد إيهام النفس. وجودك عن قرب يخفف عني مشاعر وحدة الليل. الوحدة في ليل النذير الذي لا يهدأ." قلتُ لها. وكانت هي متفهمة لمطلبي هذا. قالت: " لولا الحرج من العائلة لوضعت الفرشةَ داخل غرفة نومك. إنه ليس أيهاماً للنفس. ما من أحد منا لا يحتاج نفَسَ كيانٍ أليف على مقربة منه عند النوم. مرة حدثتني عن أن الليل لا ينتسب للزمن الذي ينتسب إليه النهار. قلتَ لي إنه يخرج من رحم مختلف. النوم في الليل، بفعل الغيبوبة الكلية عن الزمان الأرضي، مُعبّأ برائحة الموت. أنا، على خلاف منك، أحب النوم ليلاً. أنتظر ساعة النوم بلا وسواس بالتأكيد. أشعر أنه هبة الخالق لعبده. الجسد والروح فيه يلقيان أعباءَ النهار، وينعمانِ بالاسترخاء." تذكرت هذا الذي قلت لها يوماً، ووافقتها على رأيها المختلف. "ليس مرض القلب وحده العامل وراء ما حدثتك به. الإيمان القلق المضطرب أيضاً. أنت مؤمنة بيقين، وطواعية. وتنعمين بالرضى عن كل ما ترينه هبة كريمة من الله. ولكن تأملي نوم

النهار. كلنا ننام نهاراً أحيانا. وقد ننام على السرير الذي ننام فيه ليلاً، ولكن مشاعر النوم وسط الأحياء اليقظين تحيطه بالرعاية. وأحلامه، رغم أنها تخلو من الألوان شأن نوم الليل، إلا أنها يسيرة على النفس، بالغة السطحية. الشاعر لا يستعين بأحلام نوم النهار في تغذية مخيلته. أحلام نوم الليل وحدها التي تنفرد به. ولأني أعتقد بأن الشاعر الجيد هو شاعر تراجيدي بالضرورة، فإن سياق حديثي يبدو لي منسجماً تماماً."

كانت حفلة رأس السنة حافلة بعشرات المدعوين. حافلة بأطايب الطعام والشراب. لم أخرج إلى قاعة الحفلة الكبيرة إلا مرتين موجزتين. فأنا لا أحتسي الخمرة احتراساً لا تعفّفاً، ولا أُثقل في العشاء خشية من نوم مضطرب. ثم أن سويعات الليل التي تسبق ثانيته الأخيرة لا بد ستكون ذات مذاق خاص. يُحوجني، لكي يمتلئ فمي به، إلى انقطاع للنفس. مذاق هو مزيج من الطعن العقلاني بالنفس، ومن الانحناء الكسير لأهوائها. مزيج من معرفتي اليقينية بأن الوهم ليس إلا نتاج ضعفي العقلي، ومعرفتي اليقينية بأن قوة العقل لا تضمن يقيناً، وإحاطةً بكل الأسرار. وخشيتي من نبوءة عبد الستار المضحكة إنما تتسرب كدخان من صدعٍ في خزين تلك الأسرار. دخان لا مرد له.

كان الحشد يتحرك بطبيعية، وطواعية داخل مجرى الممرات الصغيرة. أحدهم تذكرته يوم كان شاباً صغيراً بالغ الحيوية، والرغبة الدائمة للضحك، حتى كأنه يسعى بين الآخرين متعمداُ، ليقتطف ضحكهم معه كما يقتطف ثماراً من شجرة. حين رآني ضحك، وكأنه يوفي ديناً، ولكني انتبهت إلى أن ضحكه هذه المرة يقتصر على الوجه وحده. مد لي يده، وكانت ترتجف قليلاً. حاول أن يعتصر أصابعي داخل راحته، ولكنه عجز عن ذلك. وفي مشيته كثير من الثقل بفعل ترهّل غير متساوق مع بنيته، وبفعل عطب صحي في عضو من أعضائه. ولكن ضحكته ظلت على عهدي بها رائعة. تشف عن قلب مُبرّأ من

الشوائب. لم أشأ أن أربك صفاء لحظته بسؤال عن صحته. صحة كل منا، كما يبدو لي، معلّقة في خيوط عنكبوت مجهولة المصدر والجذر. قال لي:

ــ الشاعر الذي لم أحصل على كتاب له. بحثتُ في مكتبات البلد، فكنتَ فيها مجهولاً تماماً. هل تذكر؟ قلت لي إن كتبك كثيرة، ومتوفرة.

ــ وفرتها لا قيمة لها.

ــ معك حق.

ثم جُذب من يده على حين غرة من شخصين على مقربة. انسحبت أنا الآخر، لأن سيدة البيت المضيفة جاءتني بخفة لتسألني إذا ما كنت جائعاً، أو ظامئاً لكاس. لم أكن جائعاً، ولكني كنت في أشد حالات الظمأ لمجرى خمري، أسبح فيه إلى نهايته، حتى أعثر على جزء من كياني المنسي فيها. هل غطّته العقود الغابرة بالغبار؟ أم نخَلته الريح فما من أثر؟ كنت أحسد الحشد المخمور من حولي. ولا أستثني المرضى منهم، حتى مرضى القلب. وحده الذي يتسارع قلبه بفعل أي حافز ومؤثر، من لا يقرب الخمرة مثلي. كنت أتخيلني أحتسي، وأحتسي. واحتسائي يشذب جسدي فيرْشَق، وروحي فتسمو. أغني على هواي، وإذا ضقت أخرج إلى الشوارع المهجورة في هذه الساعة الأثيرية من الزمان. ولعلي سينتابني الحزن في أي حين. الحزن الذي يشبه الجرح، وينزف. حينها أكون كالشاعر العباسي، الذي كان أحوجَ ما يكون لصبيان يهتفون حوله: "يا سكران". أجدني "أسأل الله سكرة قبل موتي". والله لا يجيب.

كنت على مقربة من نصف حلقة من المدعوين، يتوسطها رجل واضح الأناقة، كثير التكلف في الحركة، حتى لتتكنّف كلٍّ حركته المتكلفة في ثبات رقبته داخل الياقة المنشاة، واستدارتها فيها. وفي كل

مرة منهما يحرك رأسه إلى الجانبين، محاولة منه لتعزيز وقاره. ورقبته في كل حال ثابتة تشبه العمود المرمري الذي إلى جواره. كان واضح البخل في ابتسامته. لا يريد أن يفرّط بها لأيٍّ كان. شديد الحذر، وملتزماً بمعاييره الخاصة به. ولسوء حظه أقحمته السيدة المضيفة فجأة في محاولة بريئة لتعرّفنا ببعض. قالت بصوت هاتف: "الشاعر...."، ثم أخذت بيده: " الاستاذ... النجم التلفزيوني المعروف." شعر أن كفّه قد أُقحمت بين أصابعي عنوة. وأحسب أن المضيفة المتحمسة أسلمتْها لي عن غفلة، لأنها سرعان ما انشغلت بمشهد على منصة المايكرفون، بين مقدم ومغنٍ لم يشرع بعد في الغناء. قلت أهلاً، و لم أجده مستعداً لسماع ما قلت، وكأن استدارة رقبته باتجاهي كلفته الكثير.

أبرزَ على محياه كل ما يملك من تعابير اللامبالاة، والتعالي، والاستنكار، فلم تجد مُتّسعاً في محياه، ففاضت عليه.

حرصُ الرجل على حركة رقبته ذكرني أنا الآخر بحرصي على الدقائق التي تمضي باتجاه اللحظة الحاسمة، اللحظة الأخير من عام ٢٠٠٧. قلت حاسمة، وأنا أشعر بالحرج من نفسي: "أي ضعف بشري! أية عورة لا يسترها غطاء!" واستسلمت لخطواتي إلى غرفتي وأسرعت باتجاه السرير، وكأني انتهيت من رحلة شاقة. جلست متكلفاً التعب، ومكترثاً لحركة الوقت البطيئة. لم يتبق إلا ساعة من زمن الاحتفال، وفي لحظة نهايتها وبداية اللحظة التالية، سيصيب الجميع ضربٌ مفتعلٍ من الهستيريا العاطفية. سيهجم أحدهم على الآخر معانقاً، مقبلاً، وعلى فمه حفنة أصوات مضطربة الكلمات، مضطربة المعنى. تنبّهت إلى أنني أبالغ في تخيل المشهد، وأبالغ في تفسيره. مبالغة صادرة عن كيان محتقن. يحاول أن يضع لحظة الاحتفال الجماعي في قالب لحظته الشخصية هو. لحظته الموسوسة، المرضية! تنبهت وانتابني شعور بالذنب. انطرحت على السرير، وأرحت رأسي على

الوسادة. وأغمضت عيني. لو كنت مخموراً الآن، وسط هذا الحشد من المخمورين، لبدا كل هذا الذي في الرأس ضرباً من التداعيات الباطلة، المضحكة. وحتى لو استعصت علي السخرية من النفس ومن القدر، لكنت قادراً على التمرد، وقبول التحدي شأن بطل في دراما تراجيدية. شأن بروميثيوس لدى سوفوكلس، وإبليس لدى ميلتون، والخيام في قلم فيتزجيرالد. فالخمرة تمكن الإرادة الواهية من البطولة. ولكن هيهات. وانتابتني رغبة بكتابة النثر، وكتابة تداعيات لم أحاولها من قبل. هل طرق أحدٌ الباب؟ نهضت متمارضاً، فاقتحمت (ع) الغرفة هاتفة بي: "عجل. دقائق وتبدأ السنة الجديدة. كيف تتحمل وحدتك في هذه اللحظات المثيرة؟" أخذتني من يدي وهبطت بي السلم إلى واحة الدخان، والرقص. وعن غفلة منها أخذت ركناً قصياً، أستطيع فيه أن أترقب عقرب الساعة الكبير، وهو يضرب الأرض تحت قدمي، ويندفع قُدماً باتجاه الاحتمالات العجيبة. الاحتمالات التي تنطوي على كل ما أنطوي عليه أنا من تناقضات حقيقية، أو باطلة. وبسبابة وإبهام اليد اليسرى أمسكتُ رُسْغ اليد اليمنى، أحصي النبضات. كنت أحاذر من أن يراني أحد. وجدت أن نبضات القلب بالغة الانتظام، وصحتي الجسدية لا غبار عليها. وما من شيء ينبئ بمفاجآت مقلقة. تذكرت صديقي عبد الستار الذي يقيم في عمان. هل تُرى يحدق الآن في عقرب الساعة الكبير مثلي، ويمسك برسغ اليد اليمنى؟ ولكنه لا يشكو، كما أعرف، من تسارع النبض المفاجئ. وأعرف أكثر أنه يحتسي الكأس بحرية لا أتمتع بها. ولذا فهو الآن بالغ الطيش واللامبالاة بفضل الخمرة، وحريص على تصيد اللحظة المناسبة لمغامرة وشيكة مع امرأة مستعصية. من يعرف؟ ولعله الآن في غفلة تامة عن كل ما انطوت عليه كلمات إهدائه من نذير. وشعرت باليقين بأنه لا بد كذلك. عبَر عقربُ الساعة الثانية عشرة، و لم تخلفْ اللحظةُ الأخيرة من الليل، ولا

اللحظةُ الجديدة من الفجر هاويةً، أو هوّةً، أو حتى ثغرة. "أنا سليم كما كنتُ قبل لحظات. كيف لي أن أعرف إذا ما كنتَ بخير في عمّان أنتَ الآخر؟"[1] قلت في داخلي. "مالك؟ كل عام وأنت بخير بطبوطي." سمعت (ع) تقول، وهي تعانقني مهنئة.

لندن ٢٠٠٨

---

(١) سبقني عبد الستار ناصر إلى الموعد المؤجّل، بعد سنوات ست من تاريخ حكايتي هذه. توفي في يوم السبت ٢٠١٣/٨/٣، في إحدى مستشفيات تورنتو/ كندا، بعد أن تعرض لجلطة دماغية في عمان، في عام ٢٠١٠.

الزمنُ الثالث

هل أبتدعُ تاريخاً لهذا اليوم الذي اخترت أن أكتب إليك فيه؟ سأسميه الأحد، آخر أيام الأسبوع الذي يستريح فيه الخلق هنا. أو الجمعة، حيث يستريح فيها الخلق الذي تنتسب إليه ذاكرتي هناك. لا شك أن الاختيار يبدو لي شاقاً. إنه يعطيك صورة مُثلى عن مقدار التوزع الذي أعانيه. بين الحاضر المتواصل الذي أعيشه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وبين الذاكرة التي تستحوذ علي. ذاكرة السنوات التي عشتها باللحم والدم في الثلاثين الأولى من العمر قبل مجيئي لندن.

قبل أكثر من شهر سافرت إلى بغداد. بقيت هناك ثلاثة أسابيع، حاولت فيها أن أعبّئ كياني بالحياة من جديد. بدوت كمن يُعَبئ كيساً بقش. بالرغم من أني بدوت بالغ النشاط والأريحية، وأحسست في داخلي أنني كذلك. ولكن النشاط والحيوية اللذين صحباني كانا سهليْ المكسر. أذكر أني كنت أرعاهما باحتراس بالغ. تماماً كما يرعى شاب عاشق فتاة لم يكن على يقين من عواطفها تجاهه. نعم كان بيت أخي الكبير وابنائه واحفاده يشبه بيتنا القديم. رائحة خبز التنور في الباحة خارج البيت، النخلة إلى جوار باب مدخل الحديقة الأمامي، العشب المحترق الذي يغمره التراب، مدخل البيت المُشرع حيث لا تنقطع عنه أقدام الداخلين والخارجين من الأهل والجيران، ثمة مُتَّكأ في كل



ركن من الغرف، التي لا تفرق بين غرف النوم فيها وغرف الجلوس، مركزية المطبخ ذو الحركة الدائمة التي لا تهدأ، ثم الكيانات البشرية بدمها وعظمها، وهي تتجه، وتقاوم، وتهاجم، وتتصالح، وتستغفل، وتتنازل... هذه عناصر كنت أراها حية داخل الزمن هنا. كان الزمن الذي يتحرك لا يعبرها، أو يخترقها وهي غافلة. بل كلاهما واحد في تشكيل لوحة الحياة.

كنت أتأمل هذا وأفهمه بدقة عالية. أفهمه لأني أفتقد إليه. أو أشعر

أني افتقدته ذات يوم في عام سفري، وتجاوزي الحدود إلى زمن آخر. كنت أتأمل وأفهم المشهد بفعل هذه المقارنة بين زمنين لم أعد، للأسف، أنتسب لكليهما. أتأمل وأفهم لأني لم أعد جزءاً من المشهد. صرت، لسنوات عدة، أدرس عناصرَه عن بعد. المسافة بيننا كافية لجعلي أتأمل وأفهم. ما من مسافة بين بعضهم البعض تيسر لكل منهم الرؤية، أو التأمل والفهم الذي أحتاجه أنا. لأنهم ببساطة لا يحتاجون لكل هذا.

لم أجرؤ، على سبيل المثال، على اقتحام المشهد والدخول فيه، وادعاء أني عنصر طبيعي من عناصره. سمكة تعود إلى مجرى مائها القديم. يا للأكذوبة لو فعلت وادعيت. ما كان لنفر من العائلة الصاخبة أن يتجرّع اقتحامي المشهد بالصورة التي تخيلتها. لقد تقبلوني بينهم بهذا الاحتفاء المخلص الصادق لأني كنت أبدو لهم، حتى لحظة المغادرة، بثياب المفاجأة الملونة، عنصراً استُعيد من داخل حلم. أو قطعة ارتمتْ بينهم على حِين غرة من مخيلة ما كانت في الحسبان. وليست العاطفة الحارة التي أُحطتُ بها إلا دليلٌ بالغ القوة على ادعائي هذا. إنها عاطفة من لم يخسر أو يكسب، بل من مُنح فرصة قصيرة النفَس للوهم. هذه العاطفة نتوزعها كلانا، أنا وهم، بالتساوي. أنا الآخر كنت أشعر بفورة أريحية غير مشوبة بأسى أو فرح، لأنها قادمة من عمق الوهم. هل بدأت الصورة تتضح لك يا صديقي؟

البارحة قررت أن أتناول الغداء خارج البيت. ذهبت إلى "ويست إيلنغ"، منطقتي القديمة لكثرة مطاعمها، وقررت أن أدخل قبل ذلك باراً إلى جوار المطعم، أحتسي فيه كأس بيرة علّها تفتح شهيتي أكثر. كانت البيرة سوداء وباردة، ولون الخشب العتيق للبار بنيّاً غامقاً يبعث رائحة البن المحروق. بين أصابعي جهاز "كِندل" صغير أقرأ فيه قصائد لروبرت فروست. توقفت عند إحدى القَصائد التي يرغب فيها لو تدخل الريح:

Burst in to my narrow stall;

Swing the picture on the wall;

Run the rattling pages o'er،

Scatter poems on the floor،

Turn the poet out of door.

شعرت أن هذه الصورة تعكس هاجساً مُشتركاً بيني وبين فروست، جعلني بفعل الاثارة أتشمم رائحة البن المحروق بعمق. استعدت مقاطع من قصائد قديمة لي تحوم حول الرغبة ذاتها. على أن رغبة أن تدخل الريح تصبح لدي رغبة أن يدخل "الطائر الأزرق ليمزق بمنقاره قصائدي.."، أو رغبة أن يدخل "التلميذ العاق...الذي حطم متّكئي ومضى، وعلى الأثر رأيت على آثار خطاه درباً للحكمة غير دواتي والقرطاس.". أو رغبة أن أدخل "وأعيث فساداً في الكلمات، وأبعثر الورق التالف في قبو قراءاتي". لم أعرف مقدار أثر البيرة في إعطاء مصداقية لهذا الهاجس، لأني انتشيت وانتابني شعور من هجر الحياة لسنوات طالت، بفعل سطوة الكتاب والأفكار وهموم تأمل المصير. هذه نقطة بالغة الأهمية أحب أن أتحدث إليك بشأنها في يوم ما.

المهم هنا أن هذه الحال المسترخية جعلتني أتابع رجلاً مُسنّاً يجلس على مبعدة مني، ولكن في مقابل بار الخدمات، يحاول أن يواصل الحديث مع السيدة، راعية الطلبات وراء الكاونتر. كان البار خالياً تماماً إلا منا، ومن زبون استقل ركناً بعيداً. ومن الواضح أن الرجل المسن، الذي باشر احتساء كأسه الثاني من البيرة، بحاجة إلى من يتحدث إليه. لا بد أن الرجل يعيش وحده في بيته، في عزلة جبرية، شأن كبار السن في هذا البلد. ولا بد أنه زبون دائم في باره المحلي هذا. ولا بد أنه يرتاد البار طمعاً بالانتشاء الخيالي الذي ستحمله البيرة الباردة فيه إلى خارج

وطأة زمنه الثقيلة. ولكنه في الحين ذاته يطمع بإرواء حاجته الانسانية لضرب من الانتشاء الواقعي، الذي يوفره التماس مع الناس، أو الحديث معهم على أقل تقدير. ولكن كم يسيرة هي فاعلية الانتشاء بالخيال التي يوفرها كأس البيرة، وكم عسيرة هي فاعلية الانتشاء بالواقع التي يوفرها التماس والحديث مع الناس!

الرجل الشيخ ذو الوجنتين المتوردتين، والشعر الناعم الأشيب، واللباس الدافئ اللائق، والطبيعة الهادئة، والنظرة الحائرة، يحاول بتحرج مواصلةَ الحديث مع السيدة وراء الكاونتر. والسيدة التي لا زبائن لديها، تشغل وقتها بتصفح جريدة محلية، ولا ترغب بالاستجابة. متوسطة العمر، معتدلة الحجم، لا تخلو من حيوية وأريحية مع الشاب الذي غادر خشبة الكاونتر قبل قليل. المحرج للرجل الشيخ أن فاصل المسافة بينه وبين السيدة يتطلب منه صوتاً مسموعاً. وهو يتحرج من أن يكون صوته مسموعاً من قبلنا، نحن الزبونين المتباعدين، أو تتردد أصداؤه في بهو البار الواسع الهادئ. كنت أحس بحرجه، وأرى عبر الحرج مقدارَ الأسى الذي يتضاعف مع كل رشفة من البيرة الباردة. لعله ألم نازف بفعل وحدته الطويلة، غير المختارة. ولكن ما يجعل هذا الألم طبيعة، ومن ثَمَّ وطأة هيّنة، هكذا تخيلت، هو أنه ألم مكرر ومتوارث. إنه يحصل كل يوم، وعبر سنوات طويلة.

هنا أحب أن آخذ بيدك إلى عبور الجسر الذي يوصل حكاية رجل البار هذا بحديثي ذاك عن محنة الزمنين اللذين كُتب عليَّ أن أعيشهما مُجبراً. الزمنُ المُتخيّل الذي يغذيه الماضي، وأنتشي بسكرته، والزمنُ الواقعي الحاضر الذي أطمع أن أعيشه ولكنه لا يستجيب. لا شك أنك تراني هنا أستعير المصطلحات ذاتها التي انتفعت بها في حديثي عن الرجل الشيخ. على أني سأوضح أكثر.

حين جئت لندن في عمر الثلاثين، جئت هارباً لا باحثاً أو مكتشفاً.

ولقد كثّفتُ ذلك في قصيدة صغيرة كتبتها في حينها. جئت، وبفعل هذا الهرب وحده، كنت لا أحمل في زوادة المسافر إلا ذاكرتي. إلا عبء الماضي. وهذا أمر كثيراً ما عالجته في قصائدي أيضاً. كان زمن الذاكرة هو شاغلي. أنتشي به داخل نصي الشعري. في القصيدة كنت أنتصر للذاكرة لا للمخيلة بالدرجة الأولى. هذا ما أعتقد أنه حدث، على كل حال. الرجل الشيخ مع كأس البيرة كان ينتشي داخل مخيلته. هذا ما تفعله البيرة كما تعرف. وانا كنت أنتشي داخل الذاكرة. وهذا ما يفعله المنفى. كنت أعيش الماضي، لا أكتفي باستعادته. لا أطرب للحديث مع أخي، الذي يعيش هنا في لندن، إلا حين نفتح ملف الماضي على صفحتيه. هذا المسعى يغمرنا بحيوية مفاجئة، سرعان ما تخمد حين نُطبِق الصفحتين على بعض، ونعود إلى مشاغل الحاضر. وجه أخي يستطيل، وأنا أتكور بملل حتى يغادر.

الرجل الشيخ يحاول أن يجد سلواناً في تماسّه مع الحاضر، ولكن المرأة لا ترغب في ذلك. إن لها مشاغلها. تكفيها هموم العمل، هموم البيت، وهموم الحياة التي لا تتعب أو تكل. والرجل الشيخ لا يكف عن المحاولة، مادام مع كأس البيرة، وداخل بهو البار الدافئ الهادئ. إنه مع مخيلته يعثر على زمنه المتلاشي. تماماً كزمني المتلاشي في ذاكرتي. مقاربة قد تبدو لك هلوسة على مسرح. وهي بالفعل كذلك. إن العيش داخل المخيلة أو الذاكرة ليس أكثر من هلوسة على مسرح. ولكن ماذا بشأن الزمن في الحاضر؟ الرجل الشيخ يرى هذا الزمن يتحرك أمامه، يعبره دون أن يمسه، ويخترقه كهواء في شبك. السبب قد يكون بفعل هيمنة النظام System الضارب الهيمنة على الانسان والحياة في هذه الحضارة الحديثة. إن الكثير من مشاغل الناس وأفعالها، التي تبدو للوهلة الأولى حرة، ليست إلا مشاغل وأفعال يقترحها "السيستم" على أرواح الناس وعقولها، ثم تصبح مع الزمن مشاغل وأفعال لا واعية، تلبس لبوس الحرية الفردية، وبألوان زاهية إن أردت.

هناك عامل السن بالتأكيد، الذي يجعل رغبة تواصل الرجل الشيخ مع الزمن المحيط شاقة. إنه انفصل عن تيار الزمن، وتركه يعبره ويخترقه، ولا يمسه أو يتفاعل معه. هذه حالي بالضبط، يا صديقي، مع الزمن الذي يحيط بي هنا، منذ أكثر من ثلاثين عاماً. الفارق بيننا أنني لم يحدث أن انفصلت عن تيار الزمن هنا، وتركته يعبرني ويخترقني كهواء في شبك. بل حاولت اقتحامه منذ ثلث قرن فأبى إلا أن يعبرني ويخترقني كهواء في شبك. لا أعرف من منا العصي على الآخر. حاولت مع الانكليزية لتفتح لي بوابة المعرفة الواسعة. وبقيت معها داخل حدود المعرفة. لم تستطع أن تفعل معي أكثر من هذا. لم تأخذ بيدي لتدخلني برضا ويسر حضرة الزمن الانكليزي. لا لأن الشخصية الانكليزية ليست اجتماعية كما يُشاع عنها. هناك أصدقاء عراقيون يعيشون في بلدان غربية، أبناؤها منفتحون واجتماعيون. ولكنهم يعيشون حالتي ذاتها، عن غير وعي بها معظم الأحيان. أحس بذلك حين أتأملهم عن قرب. صديق مقرّب ذو موهبة متميزة في كتابة القصة، يعيش في فرنسا. أحسن اللغة كأبنائها، وصار يكتب قصته بالفرنسية. ولكني كنت أتأمل "هلوسته على المسرح"، ومقدارَ اضطرابه الروحي الذي صار يتسع، ويأخذ أشكالاً عدة مع الزمن. صرت أحس بالغريزة مقدارَ ما كان الزمن الفرنسي يعبره ويخترقه مثل مُنخل. بلغ لا توازنه حداً مربكاً حتى في علاقتي به. صرت أُثير حماسته للكتابة بالعربية التي انقطع عنها، أملا في إعادة التوازن. واستجاب حين لمّحت له برؤيتي لحاله، الذي يشبه حالي. الفارق أني كنت أعيه، وأرغب بوعيه أكثر، وأكثر. حتى صار مادة تأملي في كتابتي. في حين كان هو، وما يزال، لا يعيه بالقدر الكافي لتحقيق حل مناسب.

أنقل لك مقطعاً من نص شعري كتبته عام ٢٠٠٧ تحت عنوان "مدينة في مرآة":

أقترفُ حماقاتي في خماراتك.

من أوتار قلوب ندامای

أبتكر اللحن الأسودَ بين أصابع يمناي،

أُنشده فوق الجسر على الأسماك.

أنكرتُ الماضي فيك، ولكنكِ ماضيُّ الآن!

هل أُنكره؟

والحاضرُ، أذكره، كان

لا يفتأُ يُلقم ذاكرتي بالجثثِ، تُرى أتذكّره؟

لي فوق مياهك زورقُ حلمٍ من خشبٍ،

ألقيت الحبل على غاربه حين هجرتك.

ثمّ انحدر مع التيار، كما ينحدر الزمنُ،

وعند مياه البحر تلاشى في الزرقة.

واليوم أحدّق في نهر التَّيْمس،

وعبر ضباب الزمن الرائقِ ودخان الزمن المتعجّل،

لا أعثر بين مراكبه المتعالية على مُتّسع لي!

ولذا طمّنت النفس على هذا المجرى المتطفّل

لي، ولزورق حلمي الخشبي.

هذا المقطع، حين أعاود النظر فيه، أراه ينقل، بصورة شعرية رامزة طبعاً، التراجيديا التي أحاول عرض تفاصيلها أمامك في هذه الرسالة الخاصة. وينقلها بأمانة، وبشيء من الدقة، المتحدثُ في القصيدة، ولا

أشك أنه أنا، يخاطب مدينته القديمة، ولا أشك أنها بغداد. يعترف أنه كان ينكر ماضيه، لأنه يعيش حاضرة. الزمن كان يمسه، يتداخل في كيانه لأنهما واحد. مع أن حاضره هذا لا يفتأ يُلقم ذاكرته بالجثث. هذه الذاكرة التي سيحملها معه إلى منفاه. له في مياه نهر دجلة زورق من خشب. هجره كما هجر النهر. الزورق انحدر مع التيار كما ينحدر الزمن، ثم تلاشى في البحر. في الحقيقة كان تيار النهر هو الزمن، والتشبيه هنا تورية. وتلاشيه في البحر هو تلاشي زمنه الأرضي في الزمن غير المحدود. ولقد استخدمت كلمة "الزرقة" هنا بدل البحر لأن الزرقة لدي لون الغياب والموت. ثم يحدث الانتقال، حيث يحدّق البطل الآن في تيار نهر التيمس في لندن. لندن في معترك، هي ذاتها. أنظر كيف تعيش المدينة تعارضها بين ضباب (طبيعي) لزمن قديم، رائق وبطيء، وبين دخان (صناعي) لزمن متعجّل. لا أعرف إذا ما استعدت معي في هذه اللحظة مشهد الرجل الشيخ في البار، وهو موزّع بين زمنين: زمن مخيلة يغذيه بالنشوة التي تبعثها البيرة الباردة، وزمن الواقع المحيط المتمنّع. في القصيدة لا يجد المتحدث، وهو يحدق في نهر التيمس، أيَّ أثر لزورق حلمه الخشبي. ما من متسع له بين المراكب المتعالية التي تمخر النهر. ولا مجال أمام المتحدث إلا أن يتطامن مع الحال الجديد. له زمن في ذاكرته، وأمامه زمن واقع لا يقربه. يعبره ويخترقه كهواء في شبك.

هذا المقطع لا يكتفي بالتعبير عن التراجيديا، بل يرصد تفاصيلها بصورة تكاد تكون مباشرة! ولكنك، لا شك، ستسألني عن الحل المناسب الذي أحاول أن أحققه لنفسي. قد يبدو لك "هلوسة على مسرح"، وقد يبدو لي كذلك في بعض الأحيان. ولكن سأحرص على أن أوافيك به بوضوح وتفصيل.

في السنوات القليلة الأولى من إقامتي اللندنية كنت لا أجرؤ على أن أقع في حب امرأة انكليزية، بسبب عامل اللغة، التي لم أكن أحسنها

أبداً. فحاولت أن أقع في حب إيهامي لفتاة عربية، هي الوحيدة التي كنت أعرف. صديقة لصديق، وهما متحابان، ويشرعان لزواج في المستقبل. احترفت هذا الحب المستحيل لأعزي النفس برابط إيهامي مع هذه المدينة التي أحب. كان المتحابان يمضيان مضي الزمن الذي يحتضنهما، وفي محافظهما مشاريع مستقبلهما كاملة ، فيما أنا أقف عند مفترق الطرق الزمنية لا أتحرك: زمني الذي غادرته إلى غير رجعة، وزمنهما، زمن الحياة المقفلةُ أبوابه عني. أحببت المدينة بالطريقة ذاتها. هذا الحب للمدينة إيهاميّ هو الآخر. فبالرغم من أني أجهل تماماً حياتها وتفاصيل تاريخها وجغرافيتها، إلا أني منحتها الصورة التي تستحقها في داخلي. وحين دخلت المدينة وقعت في حبها من أول نظرة. وقعت في هذا الحب لسبب قد يبدو وجيهاً في نظري، ولا أعرف كيف سيبدو لعينيك أنت. فأنا جئت لندن من باريس عن طريق البحر. الشهر الذي بقيته في باريس كشف لي عن مقدار التعارض الذي بين طبيعتي الشخصية وطبيعة هذه المدينة. مدينة إضاءة خارجية، وأنا أميل إلى الإضاءة الداخلية. مدينة موضة، عرضة للتغير كل بضعة أشهر. هذا ينعكس على ثقافتها الأدبية والفنية أيضاً. وأنا أتعارض مع قِصر النفس هذا. أطمع بشيء ينم عن الأناة والصبر. ولعلك تذكر أني ضد مفهوم وحدث "الثورة" حيث تكون؟ ثم أن الفرنسي قليل الابتسام في وجه الأجنبي، ولا يسخر من النفس تعبيراً عن التواضع على الأقل، فهو معتد بلغته ودمه الصافي. وأنا أضيق بالمشاعر الوطنية والقومية أيما ضيق. وباريس مدينة مقاه يرتادها المثقفون. ظاهرة تبدو مؤنسة، ولكن لا أعرف مقدار تأثيرها التدميري على كائن عربي مثلي، يميل إلى الكسل، وإلى الثرثرة. إقامتي فيها ستجعلني في أشهر مثقفاً نظرياً لا يقرأ، بل يُكثر من الكلام، وأنا جئت لكي أتعلم. هذا باختصار!

حين وقعت عيني على لندن رأيت أول ما رأيت الباص الأحمر

ذا الطابقين. الباص ذاته الذي ألفته في بغداد منذ الطفولة. مدينة الاضاءة الداخلية، حيث لا شيء مغر في الخارج. مدينة الأناة والثقافة التي تتوقف أمام أية خطوة للتغيير بحذر المرتاب. ولعلمك فإن هذه المدينة هي الوحيدة التي لم تتحمس لثورة. كروموليل جاء لإعطاء سلطة للبرلمان، مُحررة من سطوة الملك. و لم يخلع الملك إلا مضطراً. وظل الانكليزي الساعي للتغيير على قلق، حتى أعاد الملكية ثانية معززة، دون أن يفقد سلطة وهيبة البرلمان. ثم رأيت الانكليزي كثير الابتسام: "هلو سويت"، "هلو حبي"، تقول نادلة البار أو المقهى حين تُقبل لخدمتك. والانكليزي لا يميل، مثلي، إلى إظهار عضلات مشاعره الوطنية والقومية. ولا أعرف إذا ما كان يحتقرها كما أفعل. والشوارع هنا لا تزدحم بالمقاهي، فلا مهرب من البقاء في البيت، والبقاء في البيت يمنعني من الهرب من نفسي إلى الآخرين، إلى المقهى. هذا ببساطة عدد من الفوارق التي التقطتها ببراعة، في الأيام الأولى التي دخلت فيها لندن. وبفعل هذه الفوارق قررت اتخاذها منفى، ولا أجرؤ أن أقول مُستقراً. حبي للندن لم يكن إذن غير استعداد إيهامي لما أريد أن أكون عليه في المستقبل. وما حصل في المستقبل لم يكن إلا هذا التمزق بين زمنين أيها الصديق، لا أشعر ولا قناعة لي بأني أنتمي لأيّ منهما.

الرجل الشيخ في البار يتوزع بين زمنين إيهاميين: الزمن الذي تمليه مخيلته، والاخر الذي يريد أن يكون حياً فيه، وفيه يحقق تماسه الانساني مع الآخر. لا بد أن الرجل الشيخ يشعر أن الأول استمناء، والثاني استجداء. وكلاهما إيهامي وسريع الزوال. أنا الرجل الشيخ تماماً، في بار المنفى الذي لا يقل عمقاً عن عمق لون ورائحة القهوة المحترقة. أقطع الشوط الذي لا يُقاس بالأيام، ولا بالأمتار. حين زرت بغداد كان زمني الأول قد غادر موقعه الذي كنت فيه تماماً. الزورق إلى البحر، هل تذكر؟ الأصدقاء القدامى، لا الموتى منهم، فالذين قابلتهم في المقهى

مازالوا مجندين، عن غير وعي، لمقاومة الأذى الذي أحاط بهم طوال سنوات الحروب والاستبداد وحرق فردية الفرد وإنسانيته. مجندون ممتلئون بروح المقاومة المتعبة الحزينة التي استهلكت أرواحهم. وبفعل ترسبات الألم في العيون لم يروني إلا عبر منخل مخيلتهم المهترئ. ما كانت ذاكرتهم تكفي لإسعافهم في استعادتي، أنا الصديق الذي غادرهم عند مغيب الشمس. قبل أن تطبق الظلمة على عالمهم كله. مازال أحدهم يجهد في الحفاظ على زمنه القديم في ذاكرته، زمننا القديم، دون طائل. لأن العذاب الذي تلا الزمن القديم كان كفيلاً بإحراق أوراقه كلها. كانوا يرونني الصورة المحسنة، بفعل حسن نواياهم. كلانا غادره زمنه القديم بصورة من الصور. ولكن شتان بين محنتينا. هم غادرهم عن دراية منهم. وأنا عن غير دراية. هم رأوا جثمانه رأي العين، أخذوا به إلى المغْسل، وأودعوه التربة، ووضعوا عليه الشاهدة التي تليق به، وأحاطوه بالرعاية، فهو حي بينهم. من السهل على أحدهم أن يقول لبعض: "هل تذكر؟". وأنا لم أر جثمانه، فطربت لفكرة أنه حي. زمني تلاشى وأنا أكتب قصائد من وحيه. ألا تشعر بوطأة هذا الإيهام؟

هذا استطراد ضروري لإعطاء خلفية تعينك على فهم ولعي بمعالجة زمني الملتبس. فهذا الالتباس ولد من رحم المنفى كما أوضحت. والآن كيف سعيت إلى التحلل من ربقة التمزق بين زمنين؟ ما الذي اصطنعته من إيهام للنفس جديد؟ أقول لك بصراحة إني إنسان لا يسعى إلى الطمأنينة إلا في إيهام النفس، فيما يبدو. إيهام النفس يسيرٌ على الانسان الذي يعيش الوحدة التي أعيشها. في قصيدة تعود إلى عام ١٩٧١، تحت عنوان "قراءة للزمن الثالث"، ولقد استعدتها وأنا أكتب إليك، إشارة مُعلنة في العنوان إلى هذا "الزمن الثالث" الذي أود أن أحدثك عنه. إشارة مدهشة فيما أعتقد. إشارة تسبق زمنها بأكثر من ثلث قرن. أود، قبل أن أُقارب النص برؤيتي التي اصطنعتها بشأن الزمن، أن أقرأ

عليك القصيدة بمقاطعها القصيرة الثلاثة:

١

أجلس في المركبة العتيقة

بين صرير الخشب المنهار والغبار،

أقرأ في الكف عن الآتي،

وعن مدينتي المفقودة.

٢

أزهد بالشمس وبالرعشة من تراثها المركوم،

وهي تمطّ ساحلَ البلّور والنورس فوقي،

وأنا أراقب النجوم،

أقرأ فيها سورة الشعر

وسحرَ اللغة المنشودة.

٣

وها أنا

أقيم بين الزمن الثالث والمركبةِ المحطمة،

تُظلّني ساريةُ الحداد

بفيئها الساقط من نواحها المكتوم.

أرقب حتفي في عيون الفرس المهزوم...

لا أخفيك أن رعشة تُلم بي وأنا أقرأ القصيدة. رعشة من يحس أن قصيدته التي كتبها بدمه، تستقل عنه هذا الاستقلال، وتنفرد بالنبوءة، وتحكم عليه على هواها. لأن الحل الذي سعيتُ إلى اصطناعه للتحرر من الزمنين اللذين حدثتك عنهما إنما يكمن في هذا "الزمن الثالث". القصيدة قالته قبلي بأكثر من ثلث قرن! تأمل معي شخصي البائس في المركبة العتيقة، وهو يرقب تحلل أخشابها تحت الغبار، غير عارف بما يُخبئ له المستقبل، وبمصير مدينته التي فُقدت. إنه يزهد بكل شيء إلا مراقبة النجوم، حيث الشعر وسحر اللغة. ثم فجأة يجد نفسه بين "الزمن الثالث" وبين مركبته المحطمة. هل ترى معي في هذه المركبة العتيقة التي تتحلل أخشابها حياتَه الشخصية حيث ولد وحيث نشأ، وكيف أن هذه الحياة وهذا البلد غائما الرؤية، غامضا المستقبل؟ وحين يخرج للشمس حيث ساحل البلور وحيث النوارس يجد نفسه تزهد فيهما، وتفضل عليهما تأمل النجوم، يقرأ فيها الشعر وسحر اللغة التي يسعى إليها. ألا ترى معي في هذا الساحل والنوارس منفاه الجديد، وكيف أنه، بفعل عدم تآلفه مع زمن هذا المنفى انصرف إلى ما يُشغله، بعيداً عن الواقع؟ ثم نجده في مرحلة ثالثة يقيم بين "زمنه الثالث" وبين حياته التي تتمثل بالمركبة المحطمة. وعليه أن يختار. وما من شك أن خياره واقع بمجرد وصف المشهد. "الزمن الثالث" هو زمنه الجديد، يا صديقي. وهو الزمن الثالث الذي كنت أسعى لإيضاحه لك قبل أن أستعيد هذه القصيدة المدهشة. الزمن الذي أزعم أني أعيشه، أو أتوهم أني أعيشه.

إذا كان زمن الذاكرة وزمن الواقع الذي يحيطني أُفقيَيْن، فهذا "الزمن الثالث" عمودي. زمن لا ساعة فيه ولا تقويماً بالأيام والأشهر. إنه ليس الزمن المطلق، أو الأبدي بالتأكيد الذي يتحدث عنه الفلاسفة، وحتى الشعراء، بل هو زمني الشخصي الذي اصطنعته بفعل "هلوستي

على المسرح" إن شئت. زمن عالمي الداخلي الذي يرشح من مُنخُل غياب زمنين، أرحمهما بي كان إيهامياً كما تعلم. هل تصدق إذا قلت لك بأن هذا الزمن الداخلي لم يتهيأ لي بهذه الصيغة إلا بفعل الموسيقى! نعم، بفعل تعلّقي الطويل والعميق بالموسيقى. حين يقولون إن الموسيقى زمنية إنما يُقصرون الحديث على الجانب التقني، وعلى حركة الصوت. ولكنها ما إن تفلت من ربقة الآلة أو الحنجرة وأرقام الصوت الحسابية حتى تلاشي أي معنى للزمن الأرضي، أو حتى الزمن المُتخيّل. إنها تأخذ بزمام الأعماق عمودياً باتجاه الينبوع الذي تفجرت منه فردية الفرد أول مرة. تفجرت منه وحدته المطلقة، وانقطاع سبل الاتصال بينه وبين الزمن. الموسيقى تنطلق من هناك، وتقود إلى هناك، لأنها عالم مستقل بذاته عن العالم الفيزيائي الذي نعرفه.

هنا تتم قفزتي الإيهامية إذن، حين افتقدتُ صلة الوصل بزمن ذاكرتي، وزمن حاضري الذي يعبرني كهواء في شبك. قفزتي في قلب "طبيعة" الزمن الكامنة وراء الزمن الظاهر. هناك، لو حدثت القفزة، أنتزع نفسي من الألم. أزيح ستار الوحدة الظاهرة التي فرضها زمن الذاكرة، وزمن الساعة التي تحيطني من كل جانب: على الجدار، على الطاولة، على شاشة التلفزيون، وشاشة الكومبيوتر. ووراء الستار أقع على قلب "طبيعة" الزمن الكامنة. الزمن الداخلي الذي لا يغادرني، لأنه لا يتحرك. الزمن الذي يغذي قصيدتي التي أكتب، ولوحتي التي أرسم، والقطعة الموسيقية التي أسمع. وهو قادر على تغذية حتى العلاقة التي تجمعني مع المرأة التي أحب. بالرغم من أنني أعرف مسبقاً بأن هذا الزمن الداخلي الخفي سيغذي عاطفة الحب ذاتها، لا علاقتي بمن أحب.

لك أن تسمي هذا الزمن زمن المنفي: لأن زمن خمارته القديمة "غاردينيا"، حل في ذاكرته وحدها. وزمن هذا البار الانكليزي أصم، ومُغلق الأبواب دونه. وسيظل على المنفي أن يراوح على مفترق الطرق،

إذا لم يقفز إلى قلب "طبيعة" الزمن في داخله. وهذا ما حاولت أن أسعى إليه. آمل أن لا تظن أنه مسعىً دون طائل.

لندن ٢٠١٢

لعبة الكريات

.١.

"أنا قارئ يعتقد بأن الدلالة العميقة والجميلة في اللغة عنصر فاعل أساس في خلق شكل عميق وجميل. وإن كل شكلٍ لا يسمح لك بمعرفة إذا ما كان عميقاً وجميلاً، أو مسطحاً وقبيحاً هو وليد دلالة خالية من العمق، خالية من الجمال. أي أنه رديء ومفتعل. هذا ديدني مع النص الذي أقرأه لدوستويفسكي الذي كان ملاحَقاً من الدائنين، ويلاحق بدوره الصحف التي تنشر رواياته مسلسلة بفصول يكتبها على عجل، ولا يُعيد النظر فيها، أو النص الذي أقرأه لتولستوي الذي كان يعيد صياغة نثره مرات ومرات. كلاهما يملك عمق وجمال الدلالة. ونثرهما تبعاً لذلك عميق وجميل بالضرورة. وأعتبر اعتقادي هذا بديهة. ولذلك كان نثر المعميات ونثر الرطانة يعجّل بتسارع نبض قلبي، وبتسخين الدم في عروقي. فأود لو أمسك بكاتبه من ياقته وأصرخ به: إن عمر الانسان قصير، ووقت قراءته أقصر، فلمَ هذا العبث بوقتي؟ ولكني تعلمت مع الأيام أن أرمي الكتاب جانباً، وأنا لم أتجاوز في قراءته الصفحتين أو الثلاث، إذا ما وجدته ينتسب إلى حزب المعميّات والرطانة. صارت نباهتي معنية بالتقاط أعراض هذا المرض، أو الذي أعتبره مرضاً، إذا سمحتما لي بهذا. هذا القارئ الشغوف بالكتب غير



مورّط بقصر عمره فقط، ولكنه مورّط بالكثرة الكثيرة من الكتب التي تحيط به، في لغته الأم واللغة الأجنبية التي يُحسنها، إذا ما كان يُحسن لغةً. ولعل أشق ما يواجه من مشقات كامن في مهمة الاختيار. ولكما أن تتصورا هذا القارئ، وهو في مأزق ضيق الوقت، ومأزق كثرة الكتب، ومأزق ضرورة الاختيار، وقد أُقحم في صفحات كتاب يرطن كاتبها بالنثر التالي "، ثم مددت كفي وكأني مُتحفز لأمر أُعد له من زمن، إلى جيب جاكيتتي وأخرجت ورقة مدعوكة قليلاً، وصرت أقرأ: " ... ويلاحظ الكاتب أن الميتافيزيقا قامت باستبعاد اللاحضور من خلال تعريفها للمكمل بأنه مجرد عنصر خارجي بسيط أي إضافة خالصة أو غياب خالص، فكما يضاف الكلام إلى الحضور الحدسي إلى الوجود إلى الجوهر، فكذلك تضاف الكتابة إلى الكلام الحي الحاضر،

كما تأتي الثقافة لتضاف إلى الطبيعة وهكذا لا يكون "المكمل" شيئاً على الإطلاق، فهو محض زيادة خارجية أو جسم طفيلي يُضاف إلى حضور جوهري ممتلئ. غير أن التناقض يكمن في أنه في الوقت الذي يعتبر المكمل محض إضافة تكميلية لأصل ما، إلا أن الحاصل هو أن الأصل لا يوجد ولا يتميّز ولا يكتسب حضوره إلا بفضل المكمل هذا، فروسو الذي يعالج الكتابة كزيادة تكميلية على الكلام، يرتد في مواضع ليعالج الكتابة بوصفها ما يكمّل أو يسد نقصاً حاصلاً في الكلام. ومن هنا يخلص دريدا إلى القول بأن مفهوم الأصل ليس إلا أسطورة الإضافة أو الإكمال، إنه أسطورة محو الأثر وإلغاء الإرجاء الأصلي، فالحضور الأصلي ليس بحضور ولا غياب، بل هو الإكمال بوصفه بنية، أو هو منطق الإكمال والإضافة الذي اكتشفه دريدا في أعمال روسو، والذي يتلخص في أن الشيء المضاف إليه (الكلام والطبيعة مثلاً) بحاجة إلى المضاف أو المكمّل، لأن الاثنين يمتلكان الخصائص ذاتها التي كان يعتقد أنها من خصائص المكمّل أو الملحق فقط."!!... أنتما تضحكان! ولكن قولا لي هل هذا النثر عميق جميل، أم مُسطّح وقبيح؟ لا تستطيعا الحكم بالتأكيد. أنا لا أستطيع الحكم. ولذلك أقول عنه أنه ليس عميقاً ولا جميلاً. وليس مُسطّحاً و قبيحاً. لأني ببساطة لم أفهمه. ورطانته تيسّر لي الحكم عليه بأنه نثر رديء. هذا كل ما في الأمر. وإنني أتجنب الرداءة حين أسعى لاختيار ما أقرأ. لا وقت لي للسان وعقل عيّن. أو للسان وعقل محتالين. نعم، هناك عمق لا تملك اللغة سبر غوره. يعترف الفلاسفة بذلك. الشعراء يشكون من قصور اللغة دائماً. ولكن حكاية الشعر من جنس آخر. وكما يرى فيلسوف بالغ الذكاء مثل الألماني "كانت"، أو "كانط" كما يحلو للترجمة العربية أن تقول، بأن كنه الميتافيزيقا تستعصي على قدرات العقل، ويصح تجنبها، كذلك يمكن القول أن الأغوار التي تستعصي على اللغة، يمكن تجنبها

بالطريقة ذاتها. وأعترف لكما بأني أفضّل أن أُرجئ قراءة روائي كبير مثل الألماني "موسيل" إلى حين، والتقط بدله روايات "تورجينف". لأن لغة الأول بالغة الصعوبة بالنسبة لي. فلمَ أُفرّط بوقتي عبثاً. مع تدفق تيار "تورجينف" أسبح بيسر. إن وقت الكائن ضيق، والخيارات كثيرة. ليس من اللائق بحق العقل الإنساني أن يُعبث به. هذا كل ما في الأمر. أن التعامل المتواصل مع الصياغات اللغوية التي تخلوا من المعنى المحدد، أو حتى المعنى بأي صورة من صوره، إنما هو معول لهدم قدرات المخ التي تعين العقل والعاطفة والحس على النمو والنضج. وهو بالتالي يخلف لنا نحن الكيانات العزلاء حياة لا معنى لها. نعم، ألح على شيوع ظواهر الرطانة المغرية منذ أكثر من ثلاثة عقود ثقيلة الدم. وكنت لا أخلو من نرفزة، وهاجس مُستفَز بأن الخط البياني للمرحلة العقلية والروحية يأخذ مع الأيام شكل مُنحدر لا يرحم."

كان الصديقان في المقهى الايطالي في ميلان قد تعرّقا قليلاً بفعل كؤوس البيرة الباردة داخل هذا المناخ الصيفي المعهود بحرارته. وأنا كنت قد انتشيت بفعل كأس "الكرَبّا" الصغير مع القهوة. انتشيت لأن المقهى الصيفي أيضاً يشبه بصورة مثالية خمارة "سرجون" أو "البحرين" الصيفيين في شارع أبي نؤاس في بغداد، اللتين ألفتُ أرضيتهما الترابية، إلا من بقايا عشب لا غنى فيه. الفارق أنك هنا لك أن تطلب حياة الروح من المشروبات المسكرة، وحياة الروح من السندويتشات. وأنك هنا تتوسط رواداً خليطاً من الجنسين ذكوراً وإناثاً. وأنك تنعم برؤية الوفرة الوافرة من الإناث التي تتجاوز ضِعف عدد الذكور. على أن المكان، والنباتات المتسلقة التي لا تخلو من ياسمين وهي تحيط به، مع أعمدة الضوء تتوسط فُسحته الإسمنتية، وما يحيط هالاتها الناعسة من حشرات طائرة، تكاد جميعاً لا تختلف عن "سرجون" و"البحرين"، قبل أن تُنتزع عنهما الروح التي كانت تحيطهما بالرعاية في سنوات شبابي الأول.

كنتُ أشعر بمزيد من الإلحاح، مدفوعاً من قبل الفكرة التي استحوذت على رأسي، أو كأس "الكربّا". لأن إلحاح الطرف الآخر على ضرورة التوافق مع تطورات الحداثة التي تُلم بالعالم كان يبدو لي عناداً لا سبيل إلى قهره. وكنت أتوق إلى كأس "كرابّا" آخر، إلا أن خوفي من عاقبة الكحول على قلبي الواهن سيُضاعف بالضرورة من إلحاحي. وهذا الشعور بأني ممنوع أو مُعتقل وراء قضبان المحاذير والمخاوف يجعلني، مثل أي كائن عاجز، عنيداً بصورة ما، دون إرادة مني. هذا سبيل الإرادة العليا القاهرة، الغامضة، العمياء، التي تقود أحدنا كمعزى إلى هدفها العابث. كان "ف" ينفث دخان سيجاره الغليظ بمتعة بالغة، وبين حين وآخر يلتقط من شفتيه ما علق بهما من نُتف التبغ المبلولة بلعابه. ويكرع كأس "الكرَابّا"، بعد كأس البيرة الباردة، برضا من يأخذ حقه من الدنيا دون عنَت. وإلى جواره "خ"، الذي يصغرنا سناً، يتحاور معي بشيء من الحذر، خشية إغاظتي فأنا أكبر سناً، ولكن دون حبة تنازل: "... إن المعنى السوي صار، كالسينما السوية أو اللوحة السوية، لا يتوافق مع هذا الجنون الذي يقود الحياة من قرنيها؟ إن كل شيء يتغير، فلمَ لا أتغير أنا؟!".

"أوه. العصر الذي يتغير." قلت بتذمر. "الانسان، على اختلاف العصور، وعلى كثرة تغيراتها، يريد أن يعرف. ولا يستطيع ذلك دون أن يفهم. الانسان، والفنان بصورة خاصة، لا يحمل إزاء عصره عاطفة مودة. ولا أريد أن أقول بأنه عادة ما يكره عصره. فلم هذا الميل النظري إلى ضرورة استجابة الفنان للعصر؟"

كنت أشعر أن الصديقين يفلتان من قبضة مقاصدي التي لا تفارق الإلحاح على ضرورة توفر حد أدنى من مواجهة العصر أو تغيراته، لا الاستجابة الطيعة لكليهما. "في موقف انتظار الباص" واصلت الحديث بالتدفق ذاته "في واحدة من هذه البلدان الأوربية التي لم أعد أتذكر، لم

أستطع الجلوس على المقاعد، التي صُممت من قبل فنان ما بعد حداثي بالتأكيد. لأنها وعُراها من الألمنيوم، المعدني، البارد، المُزحلق، المنحرف بصورة قد تُمتع العين الحداثية، ولكنها لا تصلح لمؤخرة الكائن المسكين. فضلت أن أظل واقفاً أتأملها بأسى. كنت أتخيل بدلها مقاعد من خشب مُرصّع بكتل برونز. إن دراما مواجهة التاريخ، أو العصر كما يحلو لنا أن نسميه، هي التي تولِّد عزلتي كشاعر أو فنان. هذه العزلة تتيح لي أن أنصرف إلى دراما صراعي مع نفسي. وكذلك إلحاحي على حد أدنى من تحقق "الدلالة"، وتحقق "التواصل" مع الآخر، أو "الايصال" له. أنا أريد أن أفهمك، وأنت تلح على ضرورة التوافق مع حركة العصر. أنا أريد أن أفهم ما أقرأ، وأنت لا يعنيك أن تفهم ما أقول. لقد حُرمتُ، هكذا أشعر بصدق، من قراءة وفهم عشرات الكتب، ومئات المقالات، وضعفهما من رطانة الحوارات التي كانت تتدفق دون رحمة من أقلام وأفواه الكتاب منذ المرحلة الستينية حتى اليوم، وعلى امتداد الوطن العربي. حتى أني، مثل أي مهزوز نفسياً بفعل ردة الفعل، حرّمتُ على النفس استخدام مفردات عديدة، لا لشيء إلا لأنها تكررت على ألسنة وأقلام الذين يقولون، ويكتبون ما لا أفهم، مثل "الشعرية"، "النسق"، "السرد"، "التناص"، "الخطاب"، "التماهي"، "الانزياح"، "الفضاء"، "حركية السكون.."، "المسكوت عنه"، ... إلخ."

ولكي أكون واضحاً أكثر، لا مقنعاً بالضرورة، دفعت كالملسوع كفي اليمني إلى جيبي وأخرجتُ الورقة ورحت أقرأها ثانية، وبعد أن أكملتها صمتُّ، أبحلق بوجهيهما وكأني أقطّر منهما زبدةَ ردود الفعل: " هذا شيء من الاستجابة العربية للعصر! هل ترون معي مقدار وعمق الجهل فيها. بل الوقاحة. والجاهل وقح بالضرورة."

***

أنا بطبعي، الذي لا يخلو من تحفظ، ووسوسة وحذر وطمع لا ينضب للمعرفة، معلومة كانت، أو اجتهاداً وليد العقل، بوحاً وليد العاطفة، أو رؤيا وليدة المخيلة. أقول أنا بطبعي لا أميل إلى التجريد إلا في الموسيقى. لأنني حتى في أفق الرياضيات الذي لا أقربه، لا أمانع في تجسيد وتجسيم وتشكيل الصفر المجرد. وفي قصائدي كثيراً ما يستهويني تجسيد الله، المجرد عن الصفات، في هيئة شيخ.. "سمح الجبين، يفيض عليه الرداء، وفي مقلتيه ابتلالٌ، وفي طرف الشفتين ابتسامة إشفاق..." نعم، يسيرٌ عليّ أن أمنح المجردَ شكلاً. أذكر أني، في غمرة نشاط روحي في مرحلة الشباب المبكرة كنت أخطط لإصدار مجلة صغيرة في الشأن الشعري. وإني تحت عنوانها الذي نسيته الآن هيّأتُ عنواناً جانبياً يقول: "حيث يصير المضمون شكلاً". لأني، ومازلت، أنعم بفاعلية اللذة التي تختمر بسحر الانتشاء وتتحول إلى حضور مرئي، وفاعلية المضمون المجرد الذي لا يصل إلى مدارك أحدنا إلا حين يتحول إلى شكل، إلى شيء، وعمق وروعة وجمال الأسلوب الذي هو تجسيد لغوي لعمق وروعة وجمال المعنى الذي يتخفى وراءه. هذا ما كنت أعتقد، وما كان يُشعرني بالفرادة. ولا أنكر بأني كنتُ حينها مولعاً بالخمرة. وأن الخمرة كانت تحرص على بقايا مراهقتي من أن تتلاشى، ولا تُعجّل بالرجولة وبتفعيل الخبرة. والمراهق يحرص على الوهم. وهل الشعر في النهاية إلا مراهقة لا تزول؟ المشروع لم يتم كعادة كل مشاريع المراهقة، إلا أني احتفظت بـ "فاعلية اللذة التي تختمر بسحر الانتشاء وتتحول إلى حضورٍ مرئي" في عنوان "حيث تبدأ الأشياء" الذي اخترته لمجموعتي الشعرية الأولى. العنوان جاءني في خمارة "غاردينيا"، في ظهيرة صيفية. كنت أضع أصبعي بين قطع الثلج في الإناء البلاستيكي، بعد أن أكملت الكأس الأول من العرق. والهواء البارد يدفعه جهاز التبريد برفق باتجاه المائدة. وأحسب أني كنت تحت خفق ملح، داخلي أو خارجي لا فرق، من

أجنحة حب جديد رائع اللذة، ولا يخلو من أسى هو صنو المراهقة والشعر والحياة جملةً. كل هذه الروافد فاضت بي بحيث جعلتني تكويناً أرفع من صنيعة فقيرة للزمان والمكان. لم أقرن هذا الاحساس بأحاسيس الصوفية التي كنت أقرأ عنها. فأنا أضيق بالتساميات الروحية التي تفلت هاربة من الجسد، ومن كل "شيء" حسي. لأني كنت أشعر بأن الجسد سام في ذاته. وأن سموّه خشنٌ كرداء راهب. وعلى أصابع الشعر أن تألفَ لمس خشونته التي تشبه خشونة لحاء الأشجار. صرتُ احسُّ باني أبدأ حيث تبدأ "الأشياء" من حولي، التي تبادلني البوح والهمس. وأن قصيدتي تبدأ حيث تبدأ الأشياء هي الأخرى. "الأشياء" توصل بيني وبين الأسرار غير المرئية. وأنا بدوري أوصل بين هذه وبين القارئ، على هيئة كلمات. الأمر يتجوهر إذن في الإيصال. هذا ما كنت أود أن أوصله إلى متحدثيّ، في المقهى/ البار الميلاني.

اعرف أن حرصي البالغ على توكيد هذه المهمة، وعلى فضح هذه الموجة العاتية من الرطانة، لا سبيل إلى تحقيق النجاح فيه. فالموجة اكتسحت كل اللغة الأدبية العربية، والكثير من اللغة الأدبية الانكليزية أيضاً. وهي جديدة على النصف الثاني من القرن العشرين المنصرم. بالرغم من أن لغة الساسة الرسمية سبقتها في الإيهام، واللامعنى.

كنتُ حريصاً على تثبيت كلمة "اللامعنى" ذات المعنى المصوّت، بعرىً من معدن، في حديثي مع الصديقين. إذْ بلغ إحساسي بها مقداراً فقد كل قدرة على الصمت. هذا ما حدث بالفعل.

في قرابة الساعة الثانية عشرة من الليل قررنا المغادرة.

.٢.

في زيارتي لميلان، التي ستمتد أسبوعاً، أقمت في ضيافة الصديق (خ). وهو شاعر شاب، طويل القامة، وليس له من سمنة كفيلة بإرباك قامته غير سمنة البطن، التي حدثت له بفعل شرب البيرة. حتى أنه وضع تحذيراً على اسمه في برنامج "سكايب" للاتصال الألكتروني، إذا ما كان مشغولاً، في صياغة وجدها قريبة إلى نفسه: "مشغول بشرب البيرة". كان يسكن، مع زوجته الإيطالية الشابة، في شقة من غرفتين: غرفة للنوم، وأخرى للاستقبال، مفتوحة على مطبخ صغير ، يمتد إلى باب التواليت. كنت أنام في غرفة الاستقبال هذه، تحت رفوف عامرة بزجاجات الكحول التي يتناولها الإيطاليون وراء الوجبات الثقيلة. و لم يشكل الأمر مصدر قلق لي، بالرغم من أن بعضها كان ينتصب على الحافة، وأن سقوطه كفيل بتهشيم عظم من عظامي.

أكتفي بفَرشة اسفنجية خفيفة، أطرحها بيسر على الأرض الخشبية اللامعة، وأنطرح عليها، مع شرشف لم أكن بحاجة إليه كغطاء. فليل ميلان حار كنهاره. والتيار العذب الذي يُقبل عليّ من باب البلكونة، وينتهي إلى باب بلكونة أخرى في الجهة المقابلة، كفيل بحملي إلى النوم في دقائق. حالة لا عهد لي بها في ليل لندن الصيفي. فنحن في لندن نتغطى بلحاف صيفاً وشتاءً. ومهما اختلف ثقل اللحاف بين الفصلين إلا انه يظل ضرورة لا يأمن أحدٌ منا النوم دونه، حتى لو بدت حرارة

الجو ملموسة باليد. وهذا الأمر لا أكف عن الشكوى منه على امتداد الفصول جميعاً. وبدقة أكبر، لا أكف عن الشكوى من مخلفاته المرضية على جسدي الواهن. أحياناً، قبل النوم، أحاول وأنا تحت اللحاف مراجعة تفاصيل هذا الجسد. وأعجب حين تنفد أصابعي العشر وأنا أُحصي شكاواه: شبحُ صداع خفيف في الرأس لا شك فيه. ولو اعتبرته ألماً لا صداعاً، فلا بد أنه صادر عن عظم فيه، سرعان ما يتماهى مع ألم في الأذن. ألمٌ خفيفٌ، ولكن مُنذر، في عضد اليد، وفي الأصابع. اليد اليسرى أو اليمنى، لا فرق. لأن الألم يتضح ما أن أفكر فيه. غازات نافخة في الخاصرة. هل الخصية على ما يُرام؟ وهل ينتسب لها الألم الذي يعبر مثل نخزة دبّوس تحتها تماماً، في المنطقة الشائكة عند تلاقي الفخذين؟ القبضةُ الداخلية التي تضغط على القلب من أسفل هي قبضة القولون الصلبة. لا أشك في ذلك أيضاً. ولكنها لا تنشط إلا في الليل، في اللحظة التي أضع جسدي فيها تحت اللحاف استعداداً للنوم. ولعلي لا أبالغ إذا ما قلت بأن جميع هذه الآلام، وآلام أخرى لم أعرض لها، لا تستيقظ إلا في ساعة النوم. وفي النهار تبدو لي، حين أحاول استعادتها، غائبة، غير ناشطة.

عادة ما أحتفظ إلى جانب فراشي الأرضي بقنينة ماء، وعلبتيْ أقراص، واحدة للنوم، وأخرى من الفحم لنفخة المعدة أو الأمعاء، إذا اقتضت الحاجة لكليهما. ولكني قطعت أكثر من خمس ليال في ميلان دون هذه الحاجة. أحياناً أستيقظ مرتين أو ثلاث، ولكنها يقظة مثل لمسة الريش، وتشبه يقظةً داخل النوم. يقظة في حلم. سرعان ما تُسلمني للنوم ثانية. كنتُ أنسب هذا الفضل لمناخ ليل ميلان الصيفي حقاً. صفة الصيفي لمناخ لندن تبدو بالمقارنة تعبيراً مجازياً. هذا يعني بأني لم أسعَ إلى ديدن استعراض قائمة الأوجاع الجسدية السارية المفعول، والمحتملة. ولكني استعرضتُ، بدلاً عنها، قائمةَ الموضوعات التي

شغلتني في ساعات اليقظة: ما الذي خطر لي داخل تأملاتي الداخلية؟ وما الذي داهمني منها فشغلني؟ وما الذي جمعنا، أنا و "ف" و "خ"، من أفكار تستحق الحوار والخلاف أو التوافق؟ وما الذي أحصيت من ثمار تستحق معاودتَها كتابةً؟ على أن هذه الليلة كانت تنفرد، بوضوح لا لبس فيه، بمعضلة اللامعنى، واللادلالة، اللتين تضعفان كل قدرات الكائن العقلية والروحية. المعضلة التي أشبعناها خلافاً في مقهى/ بار ميلان.

كنت مستريحاً تماماً، وبي رضيً عقلي وروحي لا شائبة فيه. وأصابع قدميّ، التي تستقبل نسيماً عذباً، كانت لهذا السبب تطمع بحركة عابثة مداعبة. فألقيت عليها طرف الشرشف تعبث به. الشرشف الذي كنت سأستخدمه غطاءً، إذا اقتضت الحاجة. وتركت عيني تتأملان السقفَ، أو ما يُخفي السقف. ومن تلك الأشياء التي يُخفيها السقف، من قلب تلك الأشياء الغامضة الخفية دبّت جاذبيةُ النوم في كياني، فلم تجد مقاومةً مني تستحق الذكر.....

....

إن ما يجعل المشهد، أي مشهد، واقعياً هو التزامه بشروط الزمان والمكان. وما أن يتلاشى هذان الشرطان حتى ينتسبَ المشهد للحلم، أو للشعر. وبالرغم من أني لم أحتكم لهذه القاعدة حين دخلت المشهد داخل بهو الحلم، موضوع نصي المكتوب هذا، أعني قاعدة التزام شروط الزمان والمكان، إلا أن فكرة الحلم أو الشعر لم تخطر على البال أبداً. كنت أتعامل مع ما أرى وما أشهد بواقعية، يبدو الزمان والمكان فيها قُلّباً كألوان الطيف. كان المبنى الواسع الذي وجدتُ نفسي فيه،

والذي يتماهى مع مدينة كبيرة، مبنى جامعياً بكل معنى الكلمة. حشد الطلبة فيه ملموس. الكثير منهم أعرفه من سنوات بعيدة. والبعض الآخر تربطني به ذاكرة ناشطة. أصدقاء مقرّبون، كانت تربطني بهم قبل ثلاثين عاماً أكثر من وشيجة.

خمارة غاردينيا كانت تجمعنا أحياناً. وأحياناً مقهى البرلمان، أو مقهى السمر قبلها بعقود. ولا شك أن مبنى كلية الآداب التي قضيت فيها سنوات أربع، ومبنى أكاديمية ومعهد الفنون الجميلة، وقد كنت أزورهما بين حين وآخر، كانت تُسهم، مثل فرشاة فنان تعبيري، بتشكيل المشهد الذي دخلته. مشهد الممرات، والقاعات، والشوارع الفرعية، والعامة لمدينة جامعية. إلا أن الكثيرين ممن التقيتهم كانوا قد غادروا الحياة، في السنوات الأولى بعد رحيلي من بغداد إلى لندن. ولكنهم ظلوا في المشهد على ما عهدتهم عليه من حال، ترفدهم الذاكرة بقوة الحياة. فهم يتصرفون دون كثير خلاف عن تصرفهم الذي أتذكره دون شائبة، إلا شائبة هذا الخلط الظلي الذي يُمليه الغياب الكامل لقوانين المكان والزمان الصارمة. فالذي يقف معي محتضناً كتباً مجلدة ثقيلة الآن، قد يبدو بعد لحظات (هذا إذا ما كانت اللحظات لها حساب داخل الحلم!) محتضناً بالعناء ذاته حبلاً ثقيلاً يخترق على امتداده كرات خشبية ملونة، تماماً كمسبحة ضخمة. إلا أنها هنا ليست للتسلية، وصرف الوقت. بل ذات مسحة جدية، شأن الكتب، وتستحق من حامليها اكتراثاً كبيراً. صرتُ منذ الدقائق الأولى أتعامل معها بين أيديهم كما أتعامل مع الكتب سواءً بسواء. فهي نتاج جهد معرفي طويل، اجتهدتْ وجاهدتْ فيه هذه الأبنية والأروقة والأبهاء والأساتذة والطلبة دون كلل. امتلأتُ بهذا الاحساس منذ الوهلة الأولى. والآن أشعر أني مُلزم بالتصريح عمّا خطر في رأسي، وأنا أكتب إليك أيها القارئ، من أن هذا الحبل الذي يخترق الكرات الخشبية الملونة التي لا تُحصى إنما يرتبط بنسب ما بـ "لعبة

الكريات الزجاجية" التي كتبها هيرمان هيسة في آخر أيامه. فكلاهما يوحي بوسيط بالغ الغموض والتجريد بين العقل والمعرفة. لابد أن تكون صورة تلك، وإيحاؤها، وفاعليتها التجريدية قد أسهمت في ولادة هذه. ونحن نعرف مدى تأثير ما نقرأ على الأحلام. على أني لا أقارب بين مسعى البطل "كنيشت" وبين أبطال هذا المشهد. فالتجريد هنا هو وليد، أو مولّد، اللامعنى. ولا شيء وراءه، أو أمامه. إنه ضرب من الرطانة الكونية التي لا يُسهم فيها نظام الأفلاك وموسيقاها. بل تتناسل من بعضها في عتمة العقل والروح معاً.

ما من شيء يبدو اعتباطياً وعابثاً، عن قصد ودراية في المشهد كله، إلا ما تبينتُه من استغنائه عن شروط الزمان والمكان. تحدثت، على سبيل المثال، مع (م) الذي لم ألقه منذ ثلاثين عاماً، لا بسبب سفري وحده، بل بسبب موته أيضاً، فباشرني بالشكوى المرة من تعامل الأستاذ المشرف على أطروحته، وقد أكلت من عمره سنوات، بدت له عابثة الآن. كان يحمل مجلدين أو ثلاثة من الكتب، وملفات متماسكة الأوراق. وتحيط جسده عباءة جامعية سوداء، من تلك التي أراها في الأفلام. وفي غفلة مني لا تُحسب حساب الثواني والدقائق، رأيته في لقطة أخرى دونها ببدلة سوداء مع ربطة عنق لا أذكر لها لوناً. رأيته يواصل الحديث وهو يحتضن بمشقة، بدل الكتب، الحبل الثقيل الذي ينوء بكرات الخشب الملونة: " أطروحتي مقاربة نظرية تتم في ضوء المنهجية الإبيستمولوجية الحديثة في اشتقاق العقل النظري من العقل العلمي وليس العكس. ويعني ذلك في مجال ما يقع في إطار نظرية الأدب أن المقاربة النظرية هنا مشتقة من المقاربة النصية المحققة نفسها بوصفها قابلةً لإنتاج نظريتها." توقف لينظر إلي، رغبة في التأكد من أني أتابعه باهتمام. ثم واصل: "ويمكن القول في ضوء هذه المنهجية أنه بات ممكناً في منظور تاريخ الحركة الشعرية العربية الحديثة تمييز بنيتين أساسيتين متميزتين

هما بنية القصيدة الرؤيا والقصيدة اليومية...... أن جماليات الرؤيا محايثة للشعري في كل عصوره واتجاهاته ومدارسه وتدفقاته بينما مفهوم القصيدة الرؤيا يقوم على أن الشعر لا ينهض أساساً إلا عبر الرؤيا وبواسطتها، فالرؤيا هي المحددة لسائر مستوياته الأخرى برمتها في ما بات ممكناً تسميته بالقصيدة الرؤيا. وبهذا المعنى فإن القصيدة اليومية ليست مقابلةً لجماليات الرؤيا الشعرية نفسها، فهي تستخدم هذه الجماليات ولا تستطيع أن تفكر شعرياً بمعزلٍ عنها، لأن جماليات الرؤيا ملازمة لجماليات التفكير المجازي بالضرورة، لكنها مقابلة على مستوى البنية للقصيدة الرؤيا بوصفها مفهوماً معيارياً..". كان الكلام الذي تلا ذلك تتمة مرتبكة له، ولكنه بدا لي وكأنه صدى أو أصداء له، تبعد حتى تتلاشى. كما تبعد وتتلاشى كرات المسبحة الضخام.

هو وكلامه بديا متساوقين مع ما يحدث داخل المشهد. كلا الكتب والحبل المُثقل بالكرات الخشبية نتاج جهد الجامعة المعرفي. وهما بدورهما قناة التواصل المعرفي أيضاً. كان حديثنا مثيراً للدهشة، لأن الكلمات فيه، والجمل، والفقرات تبدو لي مثل خيوط سائبة في هواء متعارض الاتجاهات. ولكي أكون أكثر دقة فإن هذه الصفة كانت تميز حديث صديقي وحده. كنت قليل الكلام. ولعلي كنت أكتفي بالتساؤل وحده، والإصغاء وحده. وصديقي القديم يتحدث بشأن موضوع أطروحته، وبشأن خلافاته مع المشرف، ومع لجنة التحكيم بصورة بدت لي غاية في التشظي، وانعدام الترابط، وبالتالي انعدام المعنى. صفاتٌ كنت أرتضيها، وأصغي لها، لأنها جزء حقيقي من المشهد. الكلمات قد تبدو منطوية على معنى بفعل تدفقها وحده. ولكن معناها مثل سمكة بين راحتي أحدنا داخل الماء. الإمساك بها أمر مستحيل. أمر خبرناه في سنوات صبانا الأولى. معنى غير محدد، بالطريقة التي

تفرضها ضرورة التواصل. معنى عائم، إن صح التعبير، يبحث عن وعاء. الكلمة وعاء سهل التلاشي مثل فقاعة الصابون. كنت أصغي، وأصغي ولا أمسك في النهاية بشيء. بصورة مقاربة للنص السابق الذي قرأته في اليقضة على صديقي في المقهى/ البار الإيطالي، فأعجب من أن كل هذا لا يكلفني عناءً ولا ضيقاً. ومن أن قدرتي على الفهم ليست هي المعيار. فالرجل يتحدث بتدفق عن مادة رسالته الجامعية بلغة مشتركة بيننا دون شك، فهي بحث في "الأدب". في "الأشكال"، إن توخيتُ الدقة. وفيما يمكن أن تنطوي عليه الأشكال من قواسم مشتركة، لكي تتوافق تماماً مع إمكانية توليد معنى. إن رسالته تتألف من فصول عديدة: " "التناص" ينتسب إلى عائلة "التناصية" ويتميز عن "التعالي النصي"، "الميتانصية"، "التجاوز النصي"، "المعمارية النصية"، "المنانصة"، "النص المحيط"، "النص الفوقي"، "المناص والمناصية"، وإن هناك الوضعية المكانية، والزمنية، والجوهرية، والتداولية للعنصر المناصي..". وقال أنه اعتمد التداخل بين الفصول، أو التناص، لكي يتجنب المنطق، الذي تفرضه المادة على الدارس. هذا كل ما حاوله طيلة سنوات، وما أصبح بالتالي نقطة انطلاق اعتراضات المشرف.

هذا، إذا ما استطعت أن أنقل عن لسانه شيئاً أزعم أني فهمته، إن لم أقل إني حفظته دون فهم بالضرورة. والذي وفر لي مزيداً من التماهي أن (م)، ما إن يتحمس لمواصلة الحديث، حتى أراه يحتضن بشدة لا تخلو من حميمية الحبلَ المُثقل بالكرات الخشبية الملونة، ويتابع امتدادها على حافة سور مجاور. سور مبنى، أو سور حديقة، داخل المدينة الجامعية. تماماً مثل المرحوم أحمد العيسى، صياد سمك محلتي (العباسية) الذي كان يسحب شبكة صيده الطويلة وهو داخل زورقه، بحميمية من يأمل بشبوط أو بُنّية، أو حتى "جريّة" يمكن أن يبيعها للقلة من المسيحيين، أو السنة من المسلمين، الذي يسكنون منطقتنا. هذا الأمر من صديقي (م)

كان يضطره لقطع الحديث، وتركي على ما أنا عليه من قناعة تامة بأني، للأسف، لم أمسك بشيء يمكنني أن أتفق معه فيه، أو أختلف. هذا إذا ما ادّعيتُ بأني فهمت أيَّ شيء أصلاً.

نحن نقول إن مذاقَ الطعام "ماصخ"، إذا كان الطعام دون ملح. ولي أن أقول أن هذه المدينة الجامعية، وهؤلاء الطلبة والأساتذة، وهذه الكتب، والحبال، والحديث الذي لا ينتهي "ماصخة". كنت أشعر أن رأسي مُفرغ من خلاياه وشباكه المعقدة. وأن تيارات فراغ لا وزن لها يحتل أمكنتها. وهذا لا يحدث بالتأكيد في العقل الذي يزوده الزمان والمكان بالمادة الحيوية المفعمة بالمعنى.

لقد التقيت أكثر من صديق على هذه الحال، وبعض الأساتذة ممن أتذكرهم من أيام الجامعة، ومن أيام حياتي الثقافية السائبة في بغداد. ولكني لم ألتق أحداً ممن تعرفت عليهم في لندن. لأن المشهد البصري برمته كان وليد ذاكرة، ولكنه مُشبع بما تمليه عليه الحياة الحاضرة. أو الحياة الثقافية الحاضرة، على وجه الدقة. أحدهم كان يتحدث معي دون أن يُصدر صوتاً. والغريب أنني ما كنت لأدهش أو أعجب. كان يتحدث عن النقد فيما يبدو. خمّنتُ ذلك لأن حديثه الأخرس كان إجابة عن تساؤل صدر عني حول النقد في النشاط الأكاديمي. ولا أعرف لم بقيت أصداءٌ كثيرة من حديثه في رأسي فيما بعد. ولم تكن لغته التي تتردد أصداءَ أقل هلامية من حديث (م) السابق. فهو يلح على قيمة المَغنطة التي تأسر الكتّاب الشباب هذه الأيام. وعلى أن الأجيال القديمة قد فقدت التوازن بفعل فقدان حركية التوازن ذاتها، فقدان فقه لغة السرد. وانه يعتبر السينما أكثر الفاعليات الإبداعية تأثيراً في الحفاظ على قيمة المَغنطة. وتحاشى قدر الإمكان ذكر الأسماء في معرض شجبه لإسهامات الصحافة الثقافية.

أذكر أن على مقربة منا كانت شابة لا تتجاوز الثلاثين، تستند على

سور خرِب، وعبر حضنها يمتد الحبل بكُراته الخشبية الملونة. كانت تنظر باتجاهنا، وكأنها كانت تصغي بتأثر لحديث الناقد، ولا تجرؤ على الحركة، بفعل حميمية احتضانها لكرات الخشب الملونة. وفي لحظة لا تُحسب حساب الثواني وجدتُ كلينا إلى جوارها، وهي تُسهم في الحوار، وكأنها بدأت فيه منذ فترة. قالت إن "مسعاها يتجه أبداً إلى التفكيك"، وبضرب من التحدي لم أفهم دوافعه. ثم واصلت بأنها تسعى إلى تفكيك قيمة المَغنطة التي وردت داخل نظرية الزميل الناقد. وكانت تُلحق كلمة تفكيك بكلمتي نسق وسرد بصورة ميكانيكية، وفي كل تكرار تضرب على إحدى الكرات الخشبية الملونة براحتها، فتهتز مسبحة الكرات الممتدة على السور الواطئ وعبر الحديقة والمبنى الذي يليها امتداداً بدا لي رمزياً. لأن حضوره حاسم في توكيد الطبيعة الأكاديمية، أو الجدية للحياة الدائرة في المشهد كله. كان السور والمبنى يمتدان إلى نهايات تبدو لي على مشارف مدينة مهجورة. أروقة الجامعة المُضاءة كانت تخرج إلى الحديقة الواسعة. وقاعات المحاضرات تتراءى من وراء زجاج. وكلا الأروقة والقاعات سرعان ما تتماهى مع شوارع وأبنية في مدينة مهجورة، كتلك التي ينبعث رمادها من بعيد. كان صوتها الصلب الأملس يتردد في أُذني: "..أما الفرضية الثانية التي تجعل المعنى محايثاً للنص، فإن سيرورتها الإفتراضية ستنتهي إلى اختزاله مجسداً في بنية ستكون بالضرورة محايثة للنص، إي إنها بنية أنطولوجية. ويكمن المشكل مع هذه الفرضية، في كيفية الوصول إليها انطلاقاً من جعلها هي نفسها وسيلة. ولا يختلف الأمر مع الاتجاهات التي تعترف بوجود معنى محايث للنص، ذلك أنها تحول إجراءات الاختزال — وإن كانت تمتلئ حدودها بالمعاني المستنبطة من موضوع النص — إلى إجراء إبيستيمولوجي. وينتج عن ذلك عزل النص عن بنيته المعنوية، الشيء الذي يقود إلى تحول إجراءات الاختزال إلى مجرد إطار، أي إلى أشكال

مادية متناسقة وفق علاقات (عديمة الشكل) خاضعة لقيود الإجراء الإبيستيمولوجي...".

حين تركتهما ضائعاً وسط حبال سائبة، وجدتني أمسك بكتلة خُيّل لي حينها بأنها تشبه تماماً كتلة "السرد" الذي لم أفهمه، والتي حرصتْ عليها الفتاة الناقدة كل هذا الحرص ـــ ونحن نعرف أن هذا التحول من التجريد إلى التجسيد ممكن تماماً في الحلم ـــ كتلة تشبه كتلة الفلّين، خشنةً بين راحتيّ. كنت حائراً أين ألقي بها، وهي تزداد وطأة على قدرات راحتيّ كل لحظة......، أين ألقي بها؟.........ثم ملأت رئتيّ رائحةُ الشاي، فاستيقظت.

ميلان ٢٠١١

الفهرس

فوزي كريم: المؤلفات

شعــر:

١ ـ حيث تبدأ الأشياء (دار الكلمة، بغداد ١٩٦٩).

٢ ـ أرفع يدي احتجاجاً (دار العودة ١٩٧٣).

٣ ـ جنون من حجر (وزارة الثقافة ، بغداد ١٩٧٧).

٤ ـ عثرات الطائر (المؤسسة العربية، بيروت ١٩٨٣).

٥ ـ لا نرث الأرض (دار رياض الريس ١٩٨٨).

٦ ـ مكائد آدم (دار صحارى ١٩٩١).

٧ ـ قارات الأوبئة، قصيدة طويلة (دار المدى ١٩٩٢).

٨ ـ قصائد مختارة (الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٩٥).

٩ ـ كواسيمودو ـ قصائد مختارة، ترجمة (دار المدى

١٠ ـ الأعمال الشعرية في جزئين (٢٠٠١ دار المدى).

١١ . Continent de douleurs، (Edition Empreintes، ٢٠٠٢)

قام بترجمة «قارات الأوبئة» إلى الفرنسية سعيد فرحان والشاع
Alain Rochat

١٢ ـ السنوات اللقيطة (دار المدى ٢٠٠٣).

١٣ ـ أبتعد مأخوذاً بالضوء (قصائد مختارة ـ القاهرة ٢٠٠٤).

١٤. Epidemiernas Kontinent. (٢٠٠٥)

اسهم في ترجمة «قارات الأوبئة» مع قصائد قصيرة مختارة إلى السويدية كل من جاسم محمد و Jan Henrik (٢٠٠٥).

١٥ ـ آخر الغجر (دار المدى ٢٠٠٥).

١٦ ـ ليل أبي العلاء (دار المدى ٢٠٠٨).

١٧. قصائد لنهار غائم (دار المدى ٢٠١٠).

١٨ - Non، l'exil ne m'embarrasse pas (Lanskine ،٢٠١٠) (

قصائد مختارة بالفرنسية ترجمها إلى الفرنسية سعيد فرحان تحت عنوان «لا، ليس يربكني النفي».

١٩ - The Plague Land and Other poems، (Carcanet ،٢٠١١)

ترجم «قارات الأوبئة» وقصائد أخرى إلى الانكليزية كل من د. عباس كاظم والشاعر Anthony Howell.

٢٠. The Empty Quarter، in version by Anthony Howell (Grey Suit Edition، London ،٢٠١٤) . قصائد مختارة بالانكليزية تحت عنوان «الربع الخالي»

٢١. I Continenti Del Male (Collana Porta Maggiore، I Poeti ،٢٠١٤)

ترجم القصائد إلى الإيطالية فوزي الدليمي

٢٢. الربع الخالي وقصائد أخرى (دار المدى ٢٠١٤)

نشر:

٢٣ ـ من الغربة حتى وعي الغربة (وزارة الثقافة، بغداد١٩٧٢).

٢٤ ـ أدمون صبري ـ دراسة ومختارات (وزارة الثقافة، بغداد١٩٧٥).

٢٥ ـ مدينة النحاس، قصص قصيرة (دار المدى، ١٩٩٥).

٢٦ ـ ثياب الأمبراطور: الشعر ومرايا الحداثة الخادعة (دار المدى، ٢٠٠٠).

٢٧ ـ الفضائل الموسيقية: الموسيقى والشعر،(دار المدى، ٢٠٠٢).

٢٨ ـ العودة الى كاردينيا، سيرة ذاتية،(دار المدى، ٢٠٠٤).

٢٩ ـ يوميات نهاية الكابوس، مقالات (دار المدى، ٢٠٠٥).

٣٠ ـ تهافت الستينين، أهواء المثقف ومخاطر الفعل السياسي، (دار المدى ٢٠٠٦).

٣١ ـ صحبة الآلهة ، حياة موسيقية، (دار المدى ٢٠١٠).

٣٢. مراعي الصّبار (دار المدى ٢٠١٤)

٣٣. الموسيقى والشعر (دار نون ٢٠١٤)

٣٤. الموسيقى والرسم (دار نون ٢٠١٤)

كتب عن فوزي كريم:

- أنسنة الشعر، نحو حداثة أخرى: فوزي كريم نموذجاً. حسن ناظم. (المركز الثقافي العربي ٢٠٠٦).
- تجليات البنى الأسلوبية في شعر فوزي كريم. د. سامي ناجي.
- إضاءة التوت وعتمة الدفلى: حوار مع فوزي كريم أجراه حسن ناظم، (دار المدى٢٠١٣).
- أنساق التعبير في شعر فوزي كريم. مازن الظالمي (رسالة ماجستير، ٢٠١٢). لم تُطبع بعد.
- المرايا والدخان، نحو بنية فضائية للقصيدة الحديثة: دراسة في شعر فوزي كريم. ياسين النصير (مُعد للنشر).

هذه النصوص مُنتزعة من يومياتي، ولكن تحت تصرف سحر الخيال. استجابة لذاكرتي ومخيلتي معاً. آخذ صورة الفوتوغراف، وأتصرف بالرسم على سطحها حراً مع فرشاة الألوان. حدث أن حاولت ذلك في كتاب "مدينة النحاس" (دار المدى ١٩٩٥)، ولعلي حاولته في مقالاتي بين الحين والآخر. وسأظل أحاوله في مقعد الاستراحة الذي يتوسط دربيْ الشعر والدراسة، إذْ كلا هذين لا يمنحاني لذاذة النثر الحكائي. في الشعر تتصرف بي اللغة على هواها، وعلى هواي أتصرف باللغة في غير الشعر. أثق بلغة الشعر لأنها غير هادفة لمقاصد مبيّتة. لغة النثر العاقل خادعة لأنها توهمك بمقاصدها باتجاه الواقع أو الحقيقة. ومن يجرؤ على الاعلان عن معرفته بكليهما، وبأي مظهر مرئي يمكن أن يتجسّد لهما خارج قحفة الرأس؟ فكيف لي أن أصدق بأن مدينة المنفى الذي أعيشه حقيقة أم محض حلم؟ ولكن نثر الحكاية طيّع، تستطيع فيه أن تقفز من مقعدك، وأنت منكبٌّ على صفحة الكتابة وقد استعصت عليك الكلمات، وتدخل بيسر في المرآة، وتختفي. هيرمن هيسه فعلها في واحدة من قصصه .

لا يخلو عالم الواقع من امتدادٍ له لا يتضح للبصر، بل للبصيرة وحدها. ولا يخلو العالم الخفي والمجهول الذي يُحيط بنا من آثار خطوات يتركها على تربة الواقع. والشعر والحكاية احتفاء بنقاط التماس بين هذين العالمين. لم أتخلَّ عن احتفائي هذا حتى في حياتي الخاصة. وحدها المرآة التي تُخيّب ظني. صحيح أنها تعكس صورتي، فتجعل من أذني اليسرى أذناً يمنى، ولكنها لا تفاجئني، وأنا أرتقي السلم ليلاً إلى غرفة النوم، بشكلي وقد مُسخ سعلاةً أو سحلية.



لوحة الغلاف: فوزي كريم